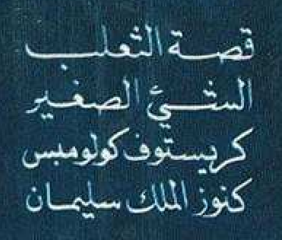
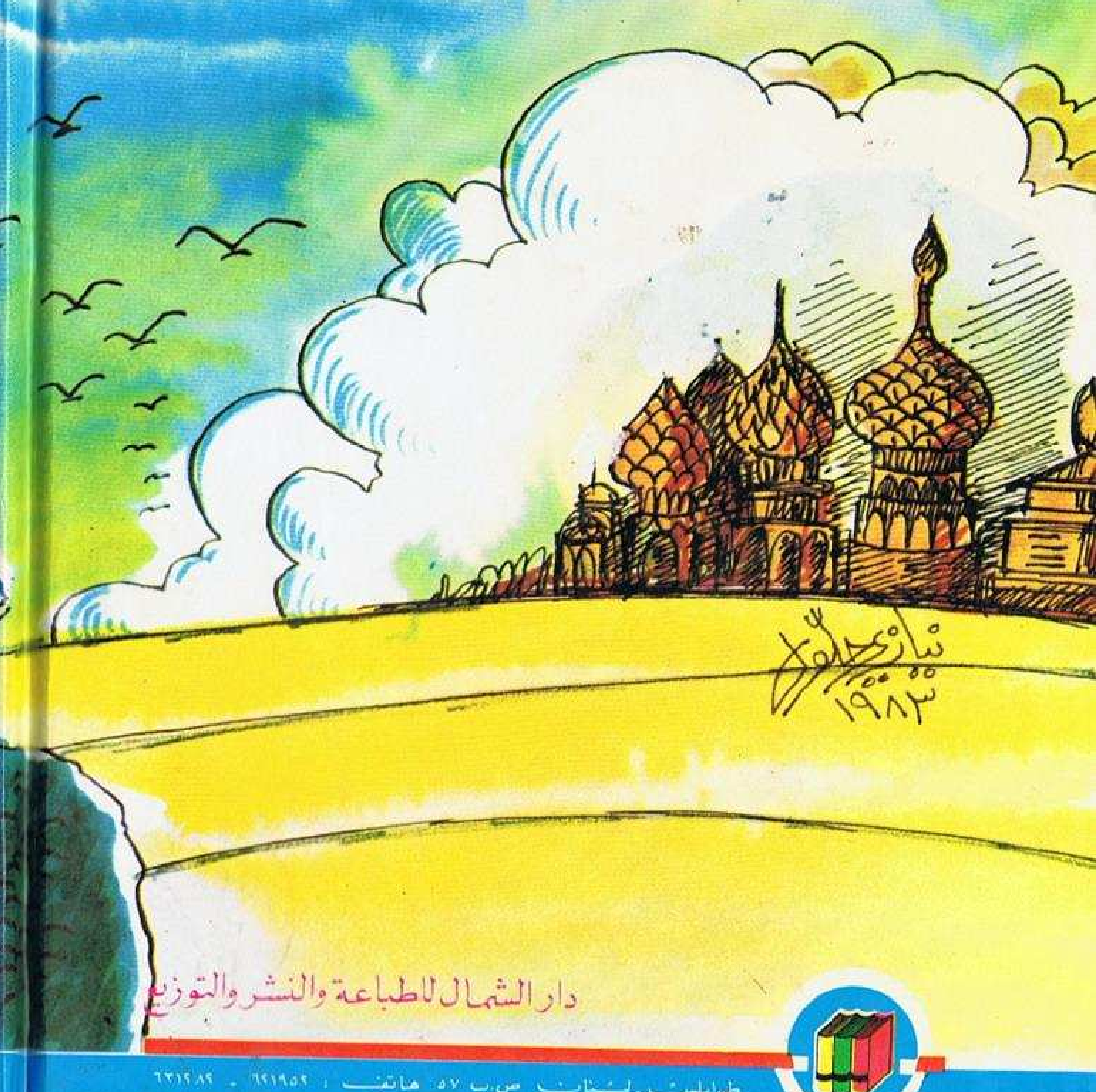




الاحمر والاسود — فونتين — قصة الثعلب
الاب البخيل — جافروش — الشيء الصغير
كولومبا — ميشال ستراغوف — كريستوف كولومبس
غرازييلا — كوزيت — كنوز الملك سليمان



دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع
طرابلس . لبنان ص.ب ٥٧ هاتف : ٦٢١٩٥٢ . ٦٣١٢٨٩
تلكس ٢٣٧٧٨ LE عصام

ميشيل ستروجوف

بقلم الكاتب الفرنسي الكبير

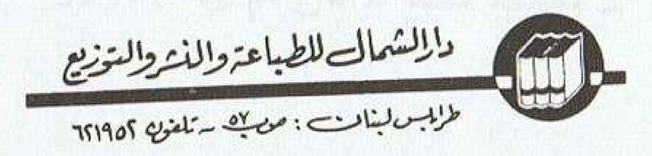
جول فيرن

أشرف على التعريب

ناصر عكاري

مراجعة وتصحيح

سيف الدين الخطيب



رَسولُ القَيصَر

ــ هذه برقية جديدة من «تومسك».

ــ وهل قُطع الخطُّ البرقي، شرقي هذه المدينة؟

ـ أجلْ، إنه مقطوعٌ منذ الأمس.

كان المتكلِّمان قيصر روسيّا وضابطه الأول، وكان الوقتُ هو الثانية من صباحِ السادس عشر من تموز، أثناء حفلةٍ كبرى أقامها القيصر في أجمل قاعات قصره في موسكو، وعُزفتْ فيها الموسيقى الرّاقصة. لكنَّ الحرب كانتْ قدِ اندلعتْ في سيبيريا وتلقّى القيصر أنباءً سيّئةً لم يشأ إطلاعَ الآخرين عليها، فاصطحب كبيرَ ضبّاطه إلى قرب نافذةٍ وتحدّث إليه بما يُشبه الهمس:

ــ وهكذا فمنذ الأمس لم يعد بمقدورنا أنْ نرسلَ برقيةً

لأخي الغراندوق؟

ـ كلا، وعمّا قريب سيُصبح من المتعذّر عبور حدود سيبيريا.

ـ إذهبْ لاستدعاءِ رئيسِ الشّرطة ولا تبُح بشيءٍ لأحد.

استمرّ الناس يرقصون ويلهون ولم يلحظْ سوى اثنين أنّ القيصر كان يتحدّث عن أمورٍ هامة، إنهما صحفيّان، أَحدهما إنكليزي يُدعى هاريّ بَلوْنت، والآخر فرنسي اسمه السيد جوليفيه، الأول يكاد أنْ يكون كلّه آذاناً يذكر كلَّ ما يسمعه، بينما الثاني كلّه عيون لا ينسى أبداً ما يراه. الانكليزي يعمل لصحيفة الدايلي تلغراف، أما الفرنسي فانه يتكتّم اسمَ صحيفته ويردِّدُ ضاحكاً إنّه يرسلُ الأخبارَ إلى «بنت عمه مادلين».

قال السيد جوليفيه:

ـ حقاً إنها حفلةٌ مُمتعةٌ يا سيدي، أليسَ كذلك؟ لكنّي أعتقدُ أنّ سحابة قد عكّرت أساريرَ القيصر عندما تحدّث إليه كبيرُ ضبّاطه.

ـ بالتأكيد، فلقد أعلمه أنّ الخطَّ البرقيَّ أصبحَ مقطوعاً بين حدودِ سيبيريا وحكومةِ ايركوتسك.

ـ آه! أَوَتعـرفُ ذلك أنتَ أيضاً؟ لقد أبرقتُ بهذا النّبأ إلى ابنة عمي في باريس.

سأله هاريّ بَلوْنت وقد استبدّ به العجب:

ـ إلى ابنةِ عمك؟

ـ أجلْ، إلى ابنةِ عمي مادلين التي تسكنُ في باريس وترغبُ بالاطّلاع على كل ما يجري في العالم.

ـ ربما كنتَ تعرفُ أنّ القيصر قد أصدرَ أوامرَه إلى قوزاق توبولسك بالزّحف على ايركوتسك.

ـ نعم يا سيدي، ويُمكنُك أنْ تتأكّد من أن ابنة عمي ستعرفُ كلَّ ذلك غداً.

ـ وسيعرفه أيضاً مَنْ سيقرأون الدايلي تلغراف غداً.

ـ انها ستكون حرباً مثيرةً للإهتمام، أليس كذلك يا سيد بَلوْنت؟

ـ سوف أتتبّعها يا سيد جوليفيه.

ـ سنلتقي كثيراً، لكنّ ذلك سيكون في أماكن أقلّ متعة من هذه القاعةِ الجميلة.

في هذه الأثناء خرجَ القيصر وقصدَ مكتبةَ لانتظار رئيس الشرطة، ففتح النافذة واستنشقَ بعضَ الهواءِ المنعش ثم تأمّل بحزنٍ عاصمتَه الكبيرةَ النّائمة، موسكو.

* * *

إن سيبيريا سهلٌ فسيحٌ يمتدُّ من جبال الأورالِ غرباً حتى المحيط الهادىء شرقاً ولم يكن فيه آنئذٍ خطٌّ حديدي، فكانتِ الأنباءُ تُرسلُ بَرْقياً بواسطة خطٍّ يربو طولُه على ٨٥٠٠ كلم، يصلُ الحدودَ الروسية بالبحر، وإذا قُطِعَ، تعيّن نقلُ رسائل القيصر أو أوامره مع أحد الناس، فكان يلزمه ثمانية عشر يوماً على الأقل للذهاب إلى إيركوتسك، وربما طالتْ لتبلغَ أربعة أو خمسة أسابيع.

بعد دقائقَ من الانتظار قُرِعَ بابُ المكتب ودخلَ رئيسُ الشرطة فبادره القيصر قائلاً:

قل لي كلَّ ما تعرفُهُ عن إيفان أوجاريف.

ـ إنه رجلٌ خطرٌ جداً، شديدُ الذكاء، يسعى دائماً لأنْ يكون السيِّدَ الأوحدَ ويستخدمُ كلَّ الوسائلِ لبلوغِ غرضه. ومنذ سنتين، لم يعد ضابطاً في جيشكم فقد عُوقب بإرساله إلى سيبيريا. وبعد ستة أشهر عفوْتُمْ عنه فعادَ إلى روسيا.

ـ أتعرفُ أين هو الآن؟

ـ لقد مكثَ بعضَ الوقت في «بارم» حيثُ بدا حسن السلوك. لكنه رحلَ منذ شهر آذار لوجهةٍ أجهلها.

ـ حسناً، إنّني أعرف وجهَتَهُ، وقد أعلمني بها بعضُ الناس. لذا سأُطلعكَ على ما كان ينبغي أن تعرفه.

إن إيفان أوجاريف قد تخفّى تحتَ اسم مستعارٍ لم ندرِ به الشرطة، فعبَرَ جبالَ الأورال وبلغَ التركستان حيثُ أصبحَ صديقاً لأحدِ الزّعماء التّتار وأعدّ بعناية للحرب التي اندلعتْ ضدنا.

إنّ الخطرَ لَعظيم، فأخي الغراندوق الذي يقودُ جيشَنا في إيركوتسك لا يعرفُ أوجاريف ولم تسبق له رؤيته، مما سيُمكِّنُ هذا الأخير من الذهاب إلى إيركوتسك حيثُ

سيستقبله أخي لاعتقاده أنه أحـدُ ضبّاطِنا الشّجعان. وهكذا يتمكّنُ الخائنُ بسهولة أنْ يفتحَ أبوابَ المدينةِ للجنود التتار وقد يقتل أخي إذا استطاعَ إلى ذلك سبيلاً. هذا ما أعرفهُ أنا وما يجهلهُ الغراندوق وما يتحتّمُ أنْ يطَّلعَ عليه.

- حسناً، أَرْسِلوا إذن رجلاً ذكياً وشجاعاً.

- إنّ كبيرَ الضبّاط يبحثُ عنه وأنا بانتظاره.

* * *

قُرِعَ بابُ المكتب ثانيةً ودخلَ كبيرُ ضباط القيصر فسأله الأخير:

- هل عثرتَ على الرجلِ اللازم؟

- أجلْ، إنه هنا.

- كم عمره؟

- ثلاثون سنة..

- أهو رجلٌ قويٌّ وذكي؟

- نعم، فهو لا يخشى البردَ ولا العطشَ ولا التعب،

ولديه كلّ المؤهّلات للنجاح حيثُ يخفق سواه.

- ما اسمه؟

- ميشال ستروجوف.

- هل هو جاهزٌ للرحيل؟

- إنه ينتظر أوامركم.

- لِيَدْخُلْ فوراً.

كان ميشال ستروجوف طويلَ القامة، قويَّ البنية، ذا نظرةٍ مستقيمةٍ تُظهر شجاعتَه التي لا يمازجُها الغضب. إنه سريعُ القرار، قليلُ الكلام والحـركة، يصغي إلى رؤسائه بصمت. لكن مشيته تنمُّ عن ثقته بنفسه ودقّة تحديده لما يريد. لذا فهو يُعَدُّ أحدَ أفضل ضبّاطِ القيصر. وبما أنه وُلِدَ في سيبيريا، فإنه يعرفها جيداً ويجيدُ التكلُّمَ بلغاتها. كان والدُه الذي تُوفي منذ عشر سنوات يسكن مـدينةَ أومسك حيثُ لا تزالُ تعيشُ والـدتُه، مـارفـا ستروجوف. هناك، وسط الغابات الكبرى نشأَ ميشال ستروجوف نشأةً قاسية. كان ستروجوف العجوز صياداً مُخيفاً يُنسبُ إليه قتل ما يربو على التسعة وثلاثين دباً.

ومنذ سن الحادية عشرة، رافق ميشال أباه في رحلات الصيد، فقتل دبَّهُ الأول لوحده وهو في الرابعة عشرة، وعرفَ كيف يسلخُ جلدَه بسكّينه ثم جرَّه حتى البيت.

وعند بلوغه سن الرجال كان بمقدوره أن يبقى أربعاً وعشرين ساعة دون أكل وأنْ يقضي عَشر ليالٍ دون نوم، كما كان يعرف كيف يجد الاتّجاه الصحيح حتى وسطَ ضباب الغابات وأثناء تساقُطِ الثلوج. وفي سن العشرين قرّر أنْ يصبحَ ضابطاً.

قال له القيصر:

- هذه رسالة يجب أنْ تُسلِّمها إلى الغراندوق شخصياً دون سواه.

- سوفَ أسلِّمها له.

- لكنْ، كي تصلَ إلى إيركوتسك، يجب أنْ تجتازَ مناطقَ حلّتْ بها جيوشُ التتار.

- سوف أجتازها.

- يجب على الأخص أنْ تحذر من إيفان أوجاريف فقد نلقاه على طريقك.

- سوفَ أَحذره.

- هل ستمرّ بأومسك؟

- أجلْ فهذه هي طريقي.

- إذا قابلتَ أُمّك سيعرِفُكَ الناس، فلا تَفْعَلْ.

- لن أراها.

- يجب ألَّا يعلمَ أحدٌ من أنتَ أو إلى أينَ تذهب. سيُحاولُ إيفان أوجاريف وزعماءُ التتار أنْ يعثروا عليكَ ويأسروكَ لكن رغمَ ذلك كلّه يجب أنْ تمر.

- سأمرُّ أو أُقْتَل.

- أنا بحاجةٍ لأنْ تعيش.

- سأعيشُ وسأمر.

- إذهبْ إذنْ من أجل الله ومن أجل روسيا وأخي وأنا.

خرجَ ميشال ستروجوف فالتفتَ القيصر إلى كبير ضباطه وقال:

- أعتقدُ أنك قد أحسنتَ الاختيار.

ـ يمكنكم أنّ تثقوا أنه سيبذلُ كلَّ ما يقوى عليه رجل.

ـ أجل، إنه حقاً لَرَجل.

* * *

لو كان الزّمنُ زمنَ سِلْمٍ لَحصلَ ميشال ستروجوف على أمرٍ خطّي يحملُ عبارةَ «في خدمة القيصر»، يُمكِّنُهُ من الحصولِ على أفضل الجياد والعرباتِ، ويَسمحُ له بمزيدٍ من السرعة.

لكنها الحرب، فلا يجب أنْ يكتشفَ الناس هويّته. لذا أُعطيَ أوراقَ هويَّةٍ جديدة باسم نيكولا كوربانوف.

صباحَ السادس عشر من تموز قصد المحطّةَ كيْ يستقلَّ أول قطارٍ مُتجهٍ إلى «نيجني نوفو جورود» وهو بزيِّ التجار، يحملُ كيساً على ظهره، ويخفي مسدساً تحت حزامه، وسكّينَ صيدٍ في جيبه، من تلكَ السكاكين التي تُستعمل لقتل الدِّببة في سيبيريا دون أنْ تُمزق جلدها الثمين.

المسافةُ بين موسكو ونيجني نوفو جورود ٤٢٦ كلم يقطعها القطار بعشر ساعات. كان ميشال ستروجوف

يصغي إلى أحاديثِ جيرانه، وجُلُّهم من التجّار الذاهبين إلى سوقِ المدينة. كانوا يتحدثـونَ عن الحرب التي ستُوقف تجارتَهم وأرباحهَم دون أنْ يتجرأوا على البوح بأَفكارهم لخوفهم.

كانت الأنباءُ سيّئةً والشّرطةُ تجهلُ مكانَ إيفان أوجاريف، الذي ربّما لجأَ إلى(فيوفار خان)، زعيم التّتار أو إلى (نيجني نوفو جوردو) التي تكتظُّ بالناس طيلةَ الأسابيع الستة التي يستغرِقُها السوق، مما يُمكِّن أوجاريف من الإعداد لحربٍ أُخرى في هذه المنطقة.

توقّفَ القطارُ في إحدى المحطّات فصعِدَ إليه ركّابٌ جُدد وجلستْ قبالةَ ميشال ستروجوف فتاةٌ لا تحملُ سوى حقيبةَ سفرٍ صغيرة من الجلدِ الأحمر. إنها في السادسة أو السابعة عشرة من عمرها وستزداد جمالاً بعد بضع سنين، شقراء البشرة، سوداء العينين، بيضاء الخدين، رقيقة الفم الذي فَقَدَ عادةَ الابتسام. دُهِشَ صاحبُنا وتساءل عن وجهتها لكنه اعتصمَ بالصمت.

أخيراً بلغَ القطارُ (نيجني نوفو أورود) وقد تأخّر ساعةً

عن موعدِ وصوله فبادرَ رجالُ الشّرطة بالصّعودِ إلى المقطورات. أبرزَ ستروجوف أوراقَ هويّته التي تحملُ اسمَ نيقولا كوربانوف فسُمحَ له بالمرورِ ثم سألَ الشرطيّون الفتاة:

ـ هل أنتِ من ريجا؟

ـ أجلْ.

ـ حسناً! لا تنسي أنْ تذهبي لعرضِ أوراقكِ على مكتب الشرطة في البلد.

سمعَ ستروجوف كلَّ ذلك فازداد تعجُّباً لسفر تلكَ الطفلة إلى سيبيريا بمفردها وتساءل عمّا سيحلُّ بها. وفي هذه الأثناء غابتِ الفتاةُ عن ناظريْه.

* * *

يتوقّفُ القطارُ في نيجني نوفو جورود فلا يتعدّاها، وعلى مَنْ يُريدُ مُواصلةَ سفره باتّجاه الشرق أنْ يُبحر في مركبٍ على الفولجا. كان المركبُ التالي لا ينطلقُ قبل الغد. فَعَلَى ميشال أنْ ينتظرَ إذنْ سبعَ عشرةَ ساعةً وهو

أمرٌ مُؤسف. لم يدرِ ما يفعل فتعشّى في مطعمٍ ثم خرج للنزهة.

كان الظّلامُ قد هبطَ فسارَ دون هدفٍ مُحدّد، وهو لا يزالُ يفكِّر بفتاة القِطار. وبعد ساعة جلسَ على أحدِ المقاعد فشعرَ فوراً بيدٍ تُطبقُ على كتفه وسمعَ رجلاً لم يتمكّن من رُؤيته يسأله:

ـ ما الذي تفعلُهُ هنا؟

ـ أَرتاح.

ـ وهل ستقضي الليل على هذا المقعد؟

ـ أجلْ، إذا أعجبني ذلك.

ـ أُدْنُ كيْ أراكَ.

تذكّر ستروجوف أنّه لا يجبُ أنْ يتعرّف عليه أحدٌ فقال مُتراجعاً:

ـ لست بحاجةٍ لرُؤيتي.

عند ذلكَ لاحظَ أنّ الرجلَ يرتدي زياً بوهيمياً وأنّ هنالكَ عربةً كبيرةً مُتوقّفةً في مكانٍ قريب، خرجتْ منها امرأةٌ

وقالتْ للبوهيمي بلغةٍ من لغاتِ سيبيريا يعرفُها ميشال:

ـ إنّه بدون شك جاسوس، فاتركْهُ وتعالَ لتناول الطعام.

أجابَها البوهيمي بنفسِ اللغة:

ـ أنتِ على حق يا سنجار وغداً سنرحل.

ردّدتِ المرأةُ بتعجّبٍ ظاهر:

ـ غداً؟

ـ أجلْ، فالأبُ بنفسه هو الذي أرسلنَا إلى حيثُ نُريدُ الذهاب.

قال ميشال ستروجوف لنفسه: «حسناً! إذا كان هؤلاء البوهيميون لا يُريدون أنْ أفهمهم، فإنني أنصحهم باستعمالِ لغةٍ أخرى». ثم عادَ إلى فندقه كيْ ينام.

في اليومِ التالي بقيتْ أمامه خمس ساعات يمضيها في المدينةِ فكيف يشغلها؟ بدأ بزيارةِ السوق المُقامة على سهلٍ كبير في الجهةِ الأخرى من نهر الفولجا وكانتْ مُكتظّةً بالناسِ والبائعين والزبائن الذين قصدوها من كلِّ

مناطق روسيا وآسيا. حتى أن رحلة بعضهم قد استغرقتْ قرابة السنة. في الأوقاتِ العاديّة لا يتجاوز سكّانُ المدينةِ الثلاثين ألفاً. أما في أسابيع السوق الستة، فإن هذا العدد يرتفعُ إلى ثلاثمئة ألف. إلا أنه في ذلك اليوم كانتِ التّجارةُ كاسدة. فالناس يخشون الشراءَ وإنفاقَ المال لأنهم لا يعرفون ما سيحصل.

وجدَ ستروجوف نفسَه على الساحةِ الكبرى وسمعَ الناسَ حوله يتحدّثون عن نبأٍ هام، إذ يبدو أنّ رئيس الشرطة قد تلقّى برقيةً من موسكو. قال بعض الناس: «لقد تلقّى جنود نيجني نوفو جورود الأمرَ بالزّحف..».

ـ وصلَ التّتار إلى مشارف تومسك. فجأةً علتِ الصيحاتُ من كل الجوانب:

ـ هاكم رئيس الشرطة.

سُمعتْ في البداية ضجّةٌ كبيرةٌ ثم سادَ الصمت. وصلَ رئيسُ الشرطة إلى الساحةِ مع مجموعةٍ من فرسان القوزاق فتوقّف وأمسكَ بورقةٍ ثم شرعَ يقرأ: «أمرٌ من القيصر إلى مدينةِ نيجني نوفو جورود.

١ ـ لا يحقُّ لأيِّ روسيٍّ مُغادرةَ المنطقة.

٢ ـ على جميع الغُرباء القادمين من آسيا الرّحيل قبلَ صباح الغد.

* * *

كانتِ الحربُ هي السّبب في اتّخاذ حكومة موسكو لتلك القرارات.

١ ـ إذا كان إيفان أوجاريف لا يزالُ في المنطقة، فيجبُ منعه من الرّحيل إلى سيبيريا للقاء زعيم التتار، فيوفار خان.

٢ ـ يجب ترحيل البوهيميين الذين غالباً ما يكونون أصدقاء للتتار ويسهلُ عليهم التجسّس.

لكن هذه القرارات شكّلتْ ضربةً مُخيفةً لتجارة المدينة، إذ كان على العديد من التجّار أنْ يرحلوا فبادروا إلى هدم دكاكينهم وحزم أمتعتهم. وما هي إلاّ ساعات حتى أقفرت السّاحة.

سمعَ ستروجوف رئيسَ الشرطة يتلو برقيّةَ القيصر فخطرتْ له هذه الفكرة:

ـ إنّه لأَمرٌ عجيب، فمساء الأمس قال البوهيمي: «إن الأب بنفسه يرسلنا إلى حيثُ نريدُ الذّهاب». لقد فهمتُ الآن فالأب هو القيصر كما يدعوه الشّعب. لكنْ كيفَ استطاعَ ذلك البوهيمي أنْ يعرفَ أوامرَ الحكومة؟ كان يبدو مسروراً لاضطراره إلى الرّحيل.

ثم تذكّر ميشال ستروجوف فتاةَ القطار فقال لنفسه:

ـ يا للطفلة المسكينة، إنّها لن تستطيعَ عبورَ الحدودِ بعد الآن.

كان يرغبُ بمساعدتِها وبخدمتها فخطرتْ له فكرةٌ أُخرى:

ـ قد أَحتاجُ إليها أنا أيضاً. فعندما أَعبرُ سيبيريا، سيتساءل الناس عن سببِ عجلتي وربما أَدركوا أَنّني لستُ مجرّد تاجرٍ بسيط. وفي المُقابل إذا رافقتُ تلكَ الفتاة، فلن يلحظني الناس ولن يخطرَ لهم أَنّني ضابطٌ أَرسلَهُ القيصرُ في مهمّة. يجبُ إذن أنْ أعثرَ عليها فَلأبحثْ عنها.

كانت لدى ميشال ستروجوف كما نعلم أوراقُ هويّةٍ

باسم نيقولا كوربانوف كَتبتْ عليها شرطةُ موسكو أنّ باستطاعته اصطحابَ شخصٍ واحد أو عدة أشخاص وأنه يحق له عبورُ الحدود الدّاخلية، حتى لو لم يكن ذلكَ مسموحاً لباقي الرعايا. لذا، فإنّه سيستخدمُ تلكَ الأوراق لاصطحاب الفتاة.

بحثَ عنها طيلةَ ساعتين في كل أنحاء المدينة ثم قصدَ مكتبَ الشرطة، فدخلَ إلى القاعةِ الكبرى حيثُ كان أُناسٌ عديدون ينتظرون، ورآها جالسةً على أحدِ المقاعدِ والحزنُ بادٍ عليها. ناداها: «أختاه!» فرفعتْ رأسَها وعرفته فوراً. برقتْ عيناها وفهمتْهُ فوقفتْ. قال لها:

ـ أختاه، لقد سمحتْ لنا الشرطة بمواصلة سفرنا إلى إيركوتسك فهل تأتين؟

أجابتْ وهي تشبكُ يدَها بيد ميشال: «إنّني أتبعُكَ يا أخي».

* * *

انحدرتِ المركبُ مع مجرى الفولجا ثم انعطفتْ يسرةً وصعِدتْ حتى بارم فاستغرقتِ الرّحلةُ قرابةَ الاثنتيْن وستين ساعة.

بعد رحيلِ المركبِ بوقتٍ قليل، قالتِ الفتاة لميشال ستروجوف:

ـ ستعرفُ غداً يا أخي سببَ رحيلي إلى إيركوتسك.

أنا لا أسألُكِ شيئاً يا أُختاه.

أجابتْ وقدِ ارتسمتْ على شفتيها ابتسامةٌ حزينة:

ـ ستعرفُ كلَّ شيء. فالأخت لا يجب أنْ تُخفي شيئاً عن أخيها لكني اليوم جدّ تَعِبَة. فقد خفتُ أنْ تُجبرني الشرطة على البقاء في نيجني نوفو جورود.

ـ هل تريدينَ أنْ تذهبي لترتاحي؟

لم يكنْ قد عرفَ اسمَها بعد، فقالتْ له وهي تمدُّ يدَها.

ـ ناديا.

ـ تعالي إذنْ يا ناديا، فيُمكنُكِ أنْ تطمئنّي الآن بصحبةِ أخيكِ نيقولا.

كان ميشال ستروجوف قـدِ استأجـرَ مقصورتيْن في الدرجةِ الأولى، فأوصلَ الفتاة إلى إحداهما ثم عاد إلى ظهرِ المركبِ فلاحظَ اجنبيَّين يتكلّمان الروسية بشكلٍ مقبول. قال أولهما:

- كيف؟ أأنتَ في هذا المركب أنتَ من التقيتُ بكَ في احتفال القيصر، في موسكو؟

- أجلْ.

- حسناً! لم أكنْ أظنُّ أنكَ ستَتْبعُني عن كثب!

- إنّني لا أتبعُكَ يا سيدي، بل أنتَ تتبعني.

- لِنقُلْ إذا أردتَ أننا نسيرُ معاً بنفسِ الخُطوةِ كما يفعلُ الجنود.

إنهما الصحفيّان، صيّادا الأخبار: الفرنسي، السيد جوليفيه والإنكليزي هارّي بلاونت، أحدهُما دائمُ المرح، كثير الكلام والآخر هادىء، جاد، قليل الكلام وكلٌّ منهما يُريدُ أنْ يُبرقَ قبل الآخر بالأشياءِ الهامّةِ إلى صحيفته.

مـرّ الوقتُ وحـلّ الليل والفتـاة لا تزالُ نـائمةً في مقصورتها، فتناولَ ستروجوف العشاءَ وحيداً. انتصفَ

الليل ولم يأوِ لفراشِه بعد، بل كان يتنزّه على ظهرِ المركب وينعمُ بطراوة الهواء بعد نهارٍ شديدِ الحر.

ثم قصدَ الدّرجتين الثانية والثالثة حيثُ ينامُ الركّابُ على مقـاعدَ أو على أمتعتهم أو حتى على الأرض. فحرصَ على ألاّ يدوس أحدَهم.

وفي لحظةٍ من اللحظات سمع حديثاً قريباً فتوقّفَ واختبأَ ثم أصغى، فتعرّفَ على صوتِ البوهيمي والمرأةِ اللّذيْن كانا في نيجني نوفو جورود:

- يُقال أنّ أحدَ ضُبّاطِ القيصر قد غادرَ موسكو إلى إيركوتسك.

-ذلك ما يُقال يا سنجار، لكنّ ذلك الضّابط سيصلُ متأخراً أو لن يصلَ أبداً.

كان بودِّ ستروجوف أنْ يرى وجوهَ المتحدّثيْن عن كثب. لكنهما لسوء الحظ، كانا ملتفّين بأغطيةٍ وكان الليلُ حالكَ الظلام. لذلك انسحب بهدوءٍ وجلسَ في إحدى الزوايا مُتسائلاً: «كيف عرف هذا البوهيمي بسفري ولمَ يهتمُّ به؟»

* * *

في صباحِ اليوم التالي رستِ المركبُ في كازان فراقب ستروجوف الركّابَ النّازلين، ولاحظَ مرة أُخرى البوهيميَّ والمرأةَ اللّذيْن كان يظهر أنهما رئيسا مجموعةٍ من الفتيات اللاّتي يُغنّين ويَرْقُصْنَ في سوقِ نيجني نوفو جورود. كان الرجلُ يبدو طاعناً في السن، يُخفي وجهَه تحت قبّعةٍ لا يُعرف لونها ويمشي مُنحنياً إلى الأمام، يرتدي معطفاً ممزقاً. وبقربه كانت المرأةُ التي يدعوها سنجار تبدو في الثلاثينَ من عمرها، سمراء البشرة، طويلة القامة، جميلة العينين، شقراء الشعر.

شَعَرَ ستروجوف أنّها هي أيضاً تنظرُ إليه بكثيرٍ من الإنتباه فتساءل: «أتُراها تعرّفتْ إليّ؟ إنّ للبوهيميات الخبيثات عيوناً كعيون الهررة ترى في الليل». وهنا راودتْهُ الرّغبةُ في النّزول من المركب والذهاب إلى مركز البوليس حيثُ يكشفُ عن هويّته كضابطٍ مُنتدب من قِبلَ القيصر ويُصدر الأمرَ بمراقبة ذيْنك البوهيميين وباختفاء أثرهما في كل مكان. لكنه إنْ فعل فسيعرفُ الجميعُ أنّه ليس مجرد تاجرٍ عادي، لذا قال محدّثاً نفسَه: «إنك نيقولا كوربانوف، فابْقَ هادئاً».

تُعتبرُ كازان بحقّ بوابة آسيا، إذ ينطلق منها طريقان باتجاه الأورال، أحدهُما يمرّ شمالاً ببارم وإيكاتيرينبورج، وهو الطّريقُ الأفضل. والآخر جنوبي أقصر قليلاً لكنه رديء لا يمرّ بقرى كثيرة. كان ميشال ستروجوف مُحقاً باختياره الطريق الأول فقد سلكَ البوهيميان اللذان حلاّ بكازان الطّريق الثاني، وهكذا سيُضيّعان وقتاً كبيراً ويصلان دون شك إلى سيبيريا بعده.

استأَنف المركب رحلته. وبعد أنْ أخذتِ الفتاةُ قسطاً من الراحة في مقصورتها صعِدتْ إلى ظهرِ المركب وجلستْ إلى جانبِ ستروجوف، فتحدّثتْ إليه بصوتٍ هامسٍ كيْلا يسمعها أحد. قالت:

- إنّني أُدعى يا أخي ناديا فيدور وكان أبي طبيباً في ريجا حيثُ كنا نعيشُ عيشة رغيدة. لكنّه لم يكنْ على وفاقٍ مع حكومة موسكو، فانخرطَ في سلك المعارضين للقيصر. علمتِ الشرطةُ بالأمر فعاقبته بإرساله إلى سيبيريا. لم نستطع مرافقته لمرض والدتي التي توفيت منذ شهر فبقيتُ وحيدة، دون مال. لذا قرّرت الذهاب

إلى والدي والعيش معه في إيركوتسك حيثُ لا يزال يتعاطى مهنةَ الطب.

ـ لكنْ كيف تجرّأْتِ يا ناديا على القيامِ بهذه الرحلة؟

ـ هذا واجبي يا أخي.

ـ ألم تكوني تعرفين باندلاع الحرب؟

ـ عندما غادرتُ ريجا، لم أكن أعرفُ شيئاً عن هذا الأمر ولم أعلم بالنبأ إلّا في موسكو.

ـ ورغم ذلك فقد تابعتِ سفرك؟

ـ إنّه الواجب.

دار هذا الحديث بينهما والمركب تتّجه إلى بارم.

* * *

وفي بارم اشترى ميشال ستروجوف عربةً واستأجر لها جياداً ثم أمرَ الحوذيَّ أنْ يُسرعَ بالسير ما استطاع. في كل محطة، كان ينتقي أفضلَ الأحصنة ويَعِدُ الحوذيَّ أنْ يُجزلَ له العطاء إذا قاد العربةَ بأقصى سرعتها، فيدهشُ الناس لرؤيتهم شاباً روسياً واخته يُمنحان حقَّ عبورِ حدودِ

سيبيريا، لكنهم كانوا يلوذون بالصمت لأن مع التاجرَ نيقولا كوربانوف جوازاً قانونياً.

لم يكنْ ضابطُ القيصر والفتاةُ لوحدهما على هذا الطريق، بل سبقتهما عربةٌ أخرى كما علم ستروجوف من أصحابِ المحطّات.

تابعا سفرهما دون توقّف، وفي اللّيل كانت ناديا تُحاولُ النوم قليلاً لكنَّ شروطَ الرّاحةِ لم تكنْ متوفرة البتّة. أما ستروجوف فلم يأخذ لنفسه قسطاً من الراحة بل بقيَ إلى جانبِ الحوذيِّ ليمنعه من النوم تحت وطأةِ التعب.

وفي العشرين من تموز لاحت لهما جبالُ الأورال من بعيد وأصبحَ الطقسُ الحار خانقاً. في المحطةِ الأخيرةِ أخبرَ الناس ستروجوف أنهم قد سمعوا في المساءِ دويَّ الرعد الذي ينذر باقترابِ العاصفةِ فلم يُجب الشاب بل سأل:

ـ متى مرّتِ العربةُ الأخرى من هنا؟

ـ منذ حوالي ساعة.

عندها خاطبَ الحوذيَّ قائلاً:

ـ إلى الأمام وسأُعطيكَ ثلاثة أضعاف ما وعدتك به إذا وصلنا صباح الغد إلى إيكاتير ينبورج.

إن جبال الأورال ليستْ شاهقةَ العلوِّ ولا يتجاوز ارتفاعها ١٦٠٠ متراً، لذا فالطريقُ عبرها سهلةٌ في الأحوالِ العادية، لكنها تصبحُ حَذِرةً في الطقس العاصف ويلزمُ جميع الفلاحين دُورهم. كان ستروجوف الشخص الوحيد الذي جَرُؤ على السفرِ في طقسٍ كهذا، أو بالأحرى لم يكنْ لوحده فمن هم أولئكَ المسافرون المستعجلون الذين يسبقونه في كل محطة؟ إنّه يتوقُ لمعرفتهم.

هبطَ الليلُ وأخذتِ الجيادُ تصعدُ الطريق فسألَ ميشال الحوذي:

ـ في أية ساعة نصل إلى القمة؟

ـ الساعة الواحدة صباحاً، هذا إذا بلغناها.

ـ أَصدقني القول يا صاح، فليستْ هذه أول عاصفة تصادفها في الجبلِ، أليس كذلك؟

ـ كلا! وآملُ ألّا تكونَ الأخيرة في هذه الليلة.

ـ هل أنت خائف؟

ـ لستُ خائفاً لكنكَ أخطأت بالرحيل.

ـ كنتُ سأُخطىء أكثرَ لو بقيت.

بعد وقتٍ قصير، هبّت العاصفة، فجنّ جنون الريح وكادتْ توقع العربة. واعترى الجياد الخوف من قصف الرعد ووميض البرق فقفز ستروجوف والحوذي إلى الأرض وأمسكا بعنان الأحصنةِ كي يمنعاها من الهرب. في هذه الأثناء برزَ خطرٌ آخر ناجمٌ عن الأغصانِ المحطّمةِ والحجارةِ المتساقطةِ على الطّريق.

قال ميشال ستروجوف:

يجب ألّا نبقى هنا.

ـ لن نبقى فالريح ستقذفُنا عمّا قريبٍ إلى سفحِ الجبل ومن أقصرِ طريق.

كان الرجلان يُساعدان الجياد على التقدّم ويُواكبانها يمنةً ويُسرة. لكنَّ الريحَ غالباً ما كانتْ تُوقفهما أو تردُّهما

إلى الوراء. وهكذا لم يتقدّما سوى نصفِ كيلومتر في ساعتيْن بلغا بعدها أعلى المنحدر.

انهمرَ المطرُ بغزارةٍ لكنهما وجدا لحسنِ الحظ مخبأً لهما وللعربةِ يسمحُ لهما بانتظار نهايةِ العاصفة وبالنّجاة منها.

كان قصفُ الرعد مُدويّاً، وفي لحظةٍ ما شدّتْ ناديا على ذراع «أخيها» قائلة: إصغ! إنّني أسمعُ أناساً يصيحون.

* * *

كانتْ ناديا على حق، فهناك مسافرون ينادون. قال ميشال ستروجوف: سأذهبُ إليهم فابْقيا أنتُما ولا تخرجا من هنا.

كانت شجاعتُه تدفعهُ دوماً لمساعدةِ مَنْ يُواجهون الأخطار، لكنه في هذه المرة كان يتوق إلى معرفةِ أولئكَ النّاسِ الذين لا يخشون العاصفة وأرادوا تحدّيها بعبورهم الجبل. وصلَ وهو يركضُ ورأى بفضلِ وميضِ البرق رجلين جالسين على المقعدِ الخلفي لعربةٍ فقدتْ

عجلاتها الأمامية، وجيادها وحوذيها، وفيما **تعرَّف** على الصحفيّيْن الأجنبيّيْن. صاحَ الفرنسي:

- آه! أنت هنا يا سيدي، فيا لحسن الحظ! أُقدّم نفسي، فأنا السيد جوليفيه. ثمّ أضافَ ضاحكاً: وإلى جانبي أفضلُ أعدائي، السيد بلاونت.

- نيقولا كوربانوف، تاجر من إيركوتسك. ما الذي حدثَ لكما؟

- لقد غاصتِ العجلتانِ الخلفيّتانِ في الأرضِ الرطبة فانشطرتِ العربة إلى شطريْن وتابعَ حوذينا سيرَهُ دون أنْ يشعرَ بذلك. لقد رحلَ بالنصفِ الأول تاركاً لنا النصف الأردأ دون أيّة جياد. إنّه لأَمْرٌ مُضحك. أَليس كذلك؟

أجابَ الانكليزي:

- ليس في الأمرِ ما يُضحك فكيفَ سنستطيعُ الرحيل من هنا؟

قال ستروجوف:

- ليسَ بمقدوري أيّها السادة أنْ أطلبَ إليكم الصّعودَ

إلى عربتي إذ ليسَ فيها سوى مكانين اثنين لي ولأُختي، لكنّي سأُعيركم حصاناً.

ـ حقاً إنك تسدي لنا يا سيد كوربانوف خدمةً كبرى وآملُ أنْ نتمكّن من ردّ هذا الجميل لك.

أجابَ ميشال كَمن لا يُريدُ إخفاءَ شيء:

ـ إنّني ذاهبٌ إلى أومسك.

ـ أمّا نحنُ فإنّنا ذاهبانِ إلى مناطق القتال.

ـ إنّني تاجرٌ مسالمٌ لا أرغبُ بتلقّي ضرباتٍ مؤذية، لكنْ إذا أردتم ذلك فسنُسافرُ معاً حتى وادي إيشيم.

عندئذٍ ذهبَ الرجالُ الثلاثة إلى مكان ناديا والحوذي، وفي الطريقِ سمعوا صوتَ مُسدس فصاحَ ستروجوف:

ـ إلى الأمام أيّها السادة!

وقال السيد جوليفيه في نفسه: «يقولُ هذا التاجرُ إنّه يخشى العياراتِ النارية لكنه يُسرعُ إلى مصدرها».

فور ذلك سمعوا صياحَ حيوانٍ تبعه طلقٌ ناريٌّ ثانٍ فتناولَ ستروجوف سكينه قائلاً: «إنه دب». وعندما اقترب

من العربةِ رأى الحيوانَ الضّخم يَتراجعُ نحوه.

كان أحدُ الدّببة قد دخلَ الكَهْفَ الذي تنتظرُ فيه الفتاة، هرباً من العاصفةِ، فخافتِ الجيادُ وقطعَ اثنانِ منها الحبال وهربا. جرىَ الحوذيُّ في أثرهما للإمساكِ بهما فتناولتْ ناديا الشجاعة مسدّسَ صديقِها وأطلقتْ أوّلَ عيارٍ ناريٍّ أصابَ الحيوان بجرحٍ في كتفه فالتفتَ إليها وتقدّمَ منها مُتهيّئاً لسحقها عندما أطلقتْ عياراً نارياً ثانياً.

في هذه اللّحظةِ ألقى ستروجوف بنفسِه بين الدب والفتاة وبحركة واحدة من أسفل إلى أعلى شقّه من بطنه إلى صدره فسقطَ ميتاً.

بعد قليل عاد الحوذي مع الجوادين. وفي السّاعةِ الثالثة هدأتِ العاصفةُ ولم يُصادفِ المسافرون أيَّ حادث آخر حتى إيكاتير ينبورج.

* * *

في هذه المدينةِ وجدَ الصحفيّان بسهولةٍ عربةً جديدة واستأنفَ مسافرونا الأربعة رحلتهم فوراً. كانوا على وشكِ الدخولِ إلى سيبيريا حيثُ ستبدأُ الأخطارُ الحقيقيّة بالنسبةِ لهم.

الحقول والقرى هجرها سكّانُها إلى السهول الشمالية خوفاً من وصولِ التتار، ولم يبقَ سوى موظفو البرق والمحطات.

في كلّ مرة يتوقّفون فيها كان الصحفيّان وستروجوف يسألون عن أخبارِ الحربِ التي كانتْ سيئة، فإيفان أوجاريف قد نجحَ على ما يبدو بالوصولِ إلى سيبيريا وسيلتقي عما قريب بفيوفار خان. أما قوزان توبولسك فقد كانوا يتقدّمون بأقصى سرعةٍ ممكنة كيْ يُحاولوا منعَ التتار من الاستيلاء على تلكَ المدينة، لكنّ هؤلاء كانوا يزحفون غرباً نحو وادي إيشيم، وشرقاً باتّجاه كراز نويارسك.

بعدَ ظهر الثالث والعشرين من تموز رأى ميشال ستروجوف عربةً ثقيلةً يُغطّيها الغُبار تسير أمامهم، مما يؤكّدُ أنها قد مرّتْ على طرقاتٍ رديئةٍ عبرَ الريف قبل أنْ تعود لسلوكِ الطريق الرئيسي، وعند رُؤيتهم لها خطرتْ لميشال وللصحفيّين نفس الفكرة وهي أنه يجب عليهم أنْ يكونوا السبّاقينَ بالوصولِ إلى المحطةِ التالية ليضمنوا الحصولَ على أفضلِ الجياد، فأمروا حوذيّيهم بزيادةِ

السرعة وتجاوبتِ الأحصنةُ فبذلتْ جهداً أكبر لأنها لم تكنْ تعبةً كثيراً. بعد بضعِ دقائق كانتِ العرباتُ الثلاث تسيرُ جنباً إلى جنب في مباراةٍ حقيقيةٍ للسرعة. ووسط سحابةٍ من الغبارِ كان الحوذيّون يصيحون ويستحثّون جيادَهم بضرباتٍ من سياطهم. أخيراً فازَ ميشال ستروجوف والصحفيّان وبعد نصفِ ساعةٍ خلّفوا العربةَ الضخمة وراءهم فبدتْ كنقطةٍ في الأفقِ البعيد. كان ستروجوف على حق عندما أرادَ كسب ذلك السباق إذ لم يجد في المحطةِ التالية سوى ثلاثة جياد صالحة أخذها لنفسِه فقرّر الصحفيّان قضاءَ الليل هناك.

بعدَ عشر دقائق، كان باستطاعةِ ميشال ستروجوف أنْ يرحلَ فقد بُدِّلتِ الجياد. ودّع السيد جوليفيه وهاري بلاونت معتذراً منهما لعدم استطاعته مُرافقتهما لوقتٍ أطول. وفي تلكَ اللّحظةِ بالذات، سُمعَ صوتُ عجلاتٍ تتوقّفُ أمامَ المحطة، دُفعَ على أثره بابُ القاعةِ وظهرَ منه رجلٌ هو مسافرُ العربةِ الكبيرة. كان طويلَ القامةِ، قوياً، عريضَ المنكبين يرتدي زيَّ ضابط يتمنطقُ بسيفٍ ويُمسكُ بيده سوطاً. قال بلهجة مَنْ تعوّدَ إصدارَ الأوامر:

«إليَّ بجياد!» فأجابَ مديرُ المحطة: «لم يعد لديَّ منها».

- في الخارجِ ثلاثة جياد جاهزة للرحيل فلمن هي؟

- إنّها لهذا المسافر (ودلّ على ستروجوف).

- إنّني أُريدها لنفسي فأَسْرِعوا!

حارَ مديرُ المحطةِ بأمره، وانتظرَ الصحفيّان بفضولٍ لمعرفة ما سيحدث، فتقدمَ ميشال ستروجوف قائلاً:

- ستبقى جيادي مربوطةً إلى عربتي.

عندئذٍ صاحَ غاضباً:

أَلا تُريدُ تركها لي؟

- كلا!

- حسناً! ستكون لمن يستطيع استئناف السفر فدافع عن نفسك وإلاّ قتلتُك.

قال ذلك وامتشقَ حسامَهُ فأجابه ستروجوف:

- «لن أُقاتِل» وبذلَ جهداً جبّاراً للسّيطرة على نفسه، فهو يُريدُ أن يستمرّ بالتصرّف كتاجرٍ بسيط.

صاحَ الرجلُ وهو يهوي بسوطه على كتفِ ميشال قبل أن يتمكّنَ أحدُ من منعه: «حتى بعد هذا؟» فأجاب دون أن يأتي بحركةٍ واحدة، وهو يُحدِّق بعينيْ خصمه، «لا!» عندها قال الرجل «إليّ بالجياد حالاً!» ثم غادرَ القاعة.

دهشَ الصحفيان، إذ كيف يقتل هذا الشاب دباً بحركةٍ واحدةٍ من ذراعه ثم يتلقّى ضربةَ سَوطٍ دون أن يقول شيئاً! أما ناديا فقد أدركتْ أن لديه دون شك أسباباً وجيهةً أملتْ عليه مثل هذا التصرّف، لذا ذهبتْ إليه كما ذهب إليها في مكتب شرطة نيجني نوفو جورود وقالت له:

- أعطني يَدكَ يا أخي!

* * *

عكّر ما حدث مزاجَ ستروجوف فامتنعَ عن الكلام حتى مع ناديا وعرفتِ الفتاةُ بما انتابه من ألمٍ فصمتتْ هي أيضاً. وفي صباحِ اليوم التالي استأنفا سفرهما فوصلا إلى إيشيم في الرابعةِ بعد الظهر، وفي الغد (**٢٥** تموز) وحوالي الساعة نفسها بلغا إيرتيش. لم يكن هناك جسرٌ فكان عليهما أنْ يعبرا إلى الضفّة الأخرى هما وعربتهما

على عوّامة، وهو أمرٌ شاقٌّ خصوصاً في ذلك الفصل الذي ترتفعُ فيه المياه وتندفعُ بقوةٍ زائدة.

بذلَ الرجال كلَّ جهدهم لدفع العوامةِ في الاتجاه الصحيح واضعين في حسابهم بلوغَ الضفة المُقابلة على بُعد خمسة أو ستة كيلومترات من نقطة انطلاقهم. لكنّ ذلك لم يكن بالأمر الهام إذا لم يحدث لهم حادث.

وصلوا إلى وسط النهر فرأوا عدّةَ مراكبَ خفيفةٍ تتجهُ نحوهم بأقصى سرعة وصاحَ أحدُ الرجال: «التّتار، التّتار!» كان هذا صحيحاً فهم جنود يتبعون مجرى الإيرتيش نزولاً وبعد دقائقَ قليلةٍ سيقتربون منهم. صرخَ ميشال ستروجوف يستحثُّ شجاعةَ رجاله وطلبَ إلى ناديا أنْ تستعدّ للارتماء في النهر عندما يقول لها ذلك. لكن جهودَهُ ذهبتْ إذ تمكّن التّتار من الاقتراب منهم، فقُتل جوادان بأُولى الطلقات النارية. عندها صاحَ ميشال وهو يتأهّبُ للقفز في الماء: «تعالي يا ناديا» لكنّ صيحتَهُ هذه جاءتْ بعد فوات الأوان فقد وصلَ الأعداء وتلقّى هو ضربةَ سيف فسقطَ جريحاً في النهر وتحركت يدُه لحظةً

فوق مياهه ثم غابَ عن الأنظار.

صاحتْ ناديا لكن قبلَ أنْ يُتاحَ لها وقت اللّحاق بصديقها أطبق عليها التّتار فانتزعوها ثم أَلقوا بها في أحدِ مراكبهم ولم يُبقوا على أيٍّ من الرجالِ الآخرين. أما العربةُ فقد تُركتْ فوقَ مجرى النهر الذي حملها.

* * *

لم يُقتل ميشال ستروجوف بل سبحَ تحت الماء وتمكّن من بلوغ الضفة حيثُ خارتْ قواه وسقط كالميت. عثرَ عليه فلاّحٌ عجوزٌ فحمله إلى داره واعتنى به.

بعد ثلاثة أيام استفاقَ من غيبوبته فكان أوّل ما فعله هو الاطمئنان إلى وجود رسالة القيصر تحت سترته. بعد ذلك سأل عن ناديا فأجابه الفلاح أنه يعتقدُ أن التّتار سيقتادونها إلى تومسك مع باقي الأسرى.

لم يكنْ جرح صاحبنا بليغاً فاستطاعَ مُغادرةَ الفراش واستئناف الرحيل بمساعدة الفلاح الطيّب الذي قاده حتى محطة يعرفها جيداً في أومسك. لكنّ هذه المدينة قد سقطتْ في أيدي التتار وكان هناك حديثٌ عن وصولِ

إيفان أوجاريف. كانتِ الشّوارعُ والسّاحاتُ تعجُّ بالأعداء فاجتهد ستروجوف والفلاح ألاّ يُلفتا الانتباه إليهما ومرّا بأمكنةٍ لا يكثرُ فيها الناس.

وفي لحظةٍ ما توقّف الشاب وألقى بنفسه وراءَ حائطٍ مُختبئاً، فقد شاهدَ ضابطاً يتقدّم على صهوةِ جواده، تَتْبعهُ مجموعةٌ من الجنود. وعندما ابتعدوا التفت إلى الفلاح وسأله:

ـ مَنْ هو هذا الضّابط؟

ـ إنه إيفان أوجاريف.

ـ هو.

لقد كان الضابطُ هو المسافرُ الذي ضربه بالسوط، وفي نفسِ الوقت تذكّر بوهيمي نيجني نوفو جورود وتأكّد أن الاثنين شخصٌ واحد، وأن أوجاريف قد انتحل تلك الهويّة كي يستطيعَ مُغادرةَ روسيا دون أنْ تقبضَ عليه الشرطة. أما سنجار والفتيات المسافرات معها فهن في خدمةِ التّتار.

حالفَ الحظ ميشال ستروجوف فوجدَ حصاناً دفعَ ثمنه

غالياً وكان عليه أن ينتظرَ الليل فبقيَ لتناول العشاء في قاعةِ المحطة الكُبرى التي ازدحمتْ بالناس. وكما يحدث في المحطاتِ فإن الناس كانوا يؤمونها لتسقّطِ الأخبار، وفي لحظةٍ ما سمعَ ستروجوف امرأةً تُناديه:

ـ ولدي!

انها أمه مارفا العجوز التي ابتسمتْ وهي تمدّ له ذراعيْها. سألها:

ـ من أنتِ؟

ـ يا ولدي! أَلَمْ تَعُدْ تعرفُ أُمّك؟

ـ أنتِ مُخطئة! ربما كنتُ أشبهُهُ..

ـ ألستَ ابنَ بطرس ومارفا ستروجوف؟

ـ لا أعرفُ حقاً ما تريدين قولَه أيّتها الطيّبة.

قال الشّاب ذلك وهو يتراجعُ عدّة خطواتٍ فصاحتِ العجوز.

ـ ميشال!

ـ أنا لا أُدعى ميشال بل نيقولا كوربانوف.

ثم أسرع بمغادرةِ القاعة.

دهشتِ المرأةُ المسكينةُ ولم تفهم شيئاً بادىء الأمر ثم أيقنتْ أنها لم تُخطىء فذلك الشاب هو حقاً ابنها. وإذا كان قد تظاهرَ بعدم معرفتها فما ذلك إلاّ لأسبابٍ وجيهةٍ أملتْ عليه هذا التصرّف. عندئذٍ بدأ الخوفُ يُساورها من أن يتسبّب خطأُها غير المقصود بمصائبَ كبيرة.

بعد أقل من عشرِ دقائق أتى ضابطٌ للبحثِ عنها لأن إيفان أوجاريف علمَ بالأمر من أحدِ جواسيسه وأرادَ أن يراها.

ـ إن ابنك من ضباط القيصر، أليسَ كذلك؟ فأينَ هو؟

ـ في موسكو، وقد انقطعتْ عني أخبارُه منذ شهرين.

ـ مَنْ هو إذنْ ذاك الشاب الذي ناديتِه باسم ابنك في قاعةِ المحطة؟

ـ لا أدري، فقد أخطأت. إنها المرّة العاشرة التي أظنّ فيها أنّني قد التقيتُ بولدي منذُ أن امتلأتِ المدينةُ بالغرباء. يُخيّل لي أنّني أراهُ في كلّ مكان.

ـ أتدرينَ أيّتها العجوز أنّني أستطيعُ أنْ آمرَ بضربكَ حتى تقولي الحقيقة؟

ـ لقد قلتُها ولن يُغيّر الضربُ أقوالي.

نظرَ إيفان أوجاريف إلى مارفا بعين ملؤُها الشر إذ قد تأكّدَ الآن أن نيقولا كوربانوف هو في الحقيقةِ ميشال ستروجوف. لذا قال لجنوده:

ـ إقتادوا هذه المرأةَ إلى تومسك مع بقيّةِ الأسرى.

* * *

وُفّق ستروجوف بالخروج من المدينةِ دون أن يراهُ أحد. كان هناك جيشانِ كبيرانِ من التّتار: أحدهُما غربي وادي إيرتيش، وقد بلغَ مدينةَ أومسك، بقيادة إيفان أوجاريف. والثاني زحفَ بإمرة فيوفار خان، على ضفافِ الأوبي واستولى على تومسك. وبين هذيْن النهريْن ينبسطُ سهلٌ فسيحٌ مُغطّى بالبحيراتِ لم يُتح بعد للتتار أنْ يستقروا فيه، بل اكتفتْ مجموعاتٌ صغيرةٌ باجتياحِ القرى حيثُ سرقوا وأحرقوا كلَّ شيء.

لذا لم يكنْ بمقدرو ستروجوف أن يجد جياداً في

طريقِهِ بل عليه الاحتفاظ بالحصانِ الذي اشتراه في أومسك والذي كان لحسنِ الحظ قوياً وشجاعاً. لكنَّ ذلك أجبره على الإكثار من التوقف وإطالته كيْ يُمكِّنه من الأكلِ والرّاحة، فأمضى سبعة أيام (من **٢٩** تموز حتى **٥** آب) لعبورِ تلكَ المنطقةِ دون أنْ يلقى عدواً.

إنه يعرفُ أنّ جيشَ فيوفار خان قد استولى على تومسك وأن عليه تجنّب الذهاب إليها وقال له بعض الفلاحين إنّ بالقربِ من قرية كوليفان جيشاً روسياً آتياً من الشمالِ يبلغ تعداده ألفيْ جندي. فإذا استطاعَ الوصولَ إليهم دون أنْ يقعَ في الأسر، يكون قد نجا إذ سيُعرِّفُهم بنفسه فيبيعونه جياداً ويتمكّن من إكمالِ رحلته بسهولة.

* * *

في مساءِ التاسع والعشرين من تموز سمعَ عدْو جياد فاختبأ قربَ الطريق وراء الأعشاب العالية وبعد هُنَيْهةٍ مرّتْ مجموعةٌ من الجنودِ التتار فلم يُلاحظوا شيئاً لكنهم توقّفوا بعد بضعةِ أمتار كي يستريحوا تحتَ أشجار غابةٍ صغيرة. انتظر ميشال ستروجوف ريثما أنزلوا حملَ

جيادهم وتمدّدوا على الأرضِ للنوم، فحاولَ الرحيل بهدوء لكنَّ سوءَ طالعه شاء أنْ يشمَّ أحدُ جيادِ التّتار رائحةَ جواده فيصهلُ ويعدو باتّجاهه. وعندما لحق به الجنودُ شعروا أن هناك رجلاً مُختبئاً فلم يبقَ أمامَ ستروجوف إلاّ القفزَ على صهوةِ جواده والانطلاق بأقصى سرعة. عندها بادرَ التتار إلى جَمْعِ أَمتِعتهم وامتطاءِ جيادهم وبدأتْ مطاردةٌ مُرعبة.

لم يستطعْ ميشال الإفلاتَ في بادىء الأمر. صحيحٌ أنّهُ التفتَ مراراً وقَتَلَ بطلقٍ ناري العدوَّ الأقربَ إليه، لكنّ جواده تَعِب، ورغمَ ذلك فقد استطاعَ حَمْله على أنْ يركضَ بكلّ قواه لأكثَر من كيلومترَيْن حتى ضفافِ الأوبي. وهناكَ ألقى بنفسِه في النهر فغرقَ الجواد وعبرَ ستروجوف النهر سباحةً فنجا ولم يجرؤ التّتار على اللّحاق به.

* * *

سارَ ستروجوف بخطى سريعة نحو كوليفان التي لا تبعدُ أكثرَ من كيلومترين أو ثلاثة. وعند شروقِ الشمسِ

سمعَ طلقاتٍ ناريّة ورأى على يساره دُخاناً يتصاعدُ إلى عنانِ السماء ممّا يُشيرُ إلى معركةٍ تدور شمالَ المدينة، فهل كان التتار يُحاولون انتزاعها من الروس أمْ أن هؤلاء هُمُ الذين كانوا يَسْعَوْنَ إلى ذلك؟ هذا ما كان صاحبنا يتوقُ إلى معرفته. وعلى كلٍّ فقد أدركَ أنه وصلَ مُتأخراً وأنّ عليه تغييرَ وُجهةِ سيْره، إذ لم يعدْ يستطيع المُخاطرة بالذهاب إلى كوليفان. لذا قرّر مُتابعةَ سيره نحو الشرق، بعد الانعطاف إلى الجنوب.

بدأ يشعرُ بالإرهاق الشّديد وبعد وقتٍ قصير رأى بيتاً منعزلاً على حدودِ الغابةِ فظنّ أنه قد يجدُ هناك مكاناً صالحاً يختبىء فيه بانتظار حلول الظلام. كان البيتُ مكتباً للبرق جلسَ المُوظّفُ في داخلهِ مُطمئناً كما لو لم تكنْ هناك حربٌ دائرة. طرحَ عليه ميشال بعضَ الأسئلة فعلمَ أن الخط البرقي قد قُطع شرقاً لكنه لم يُقطع غرباً مما يسمحُ بإرسال البرقيات إلى روسيا. وقبل أنْ يُتاحَ له الوقت لطلب شيء من الخبز والماء، دخلَ المكتبَ شخصانِ راكضانِ أدهشه أنْ يعرفَ فيهما الصحفيّين اللذيْن ظنَّ أنه لن يراهما إلى الأبد. سبقَ الإنكليزي

زميله بالوصولِ إلى مكتبِ الموظف وأسرعَ يقرأ برقيته:

الدايلي تلغراف ـ لندن.

من كوليفان، في مقاطعةِ أومسك، سيبيريا، السادس من آب. يتقاتلُ الروسي والتتري في القريةِ منذ هذا الصباح. قُتلَ العديدُ من الروس. الباقون يتراجعون.

عندئذٍ صاحَ السيد جوليفيه الذي أتى هو أيضاً كي يبرق. «الآن جاء دوري!» فأجاب هاري بلاونت، وهو لا يزال يكتب على ورقةٍ أعطاها فيما بعد إلى الموظف: في البدءِ خلق الله السماء والأرض، وكانتِ الأرضُ لا شكل لها والليلُ يُغطّيها تماماً..

كانت هذه هي قصةُ بداية العالم التي أخذَ يُضيفُها كيْلا يتركَ مكانه لزميله الفرنسي. إنّه يعرفُ أن هذا العمل سيكلفه غالياً بالتأكيد لكنه يريد أنْ تكون صحيفته الأولى بتلقّي الأخبار الهامة. وبينما كان الموظف مشغولاً بإرسال برقية بلاونت ذهبَ هذا الأخير لإلقاءِ نظرةٍ من النافذة ثم عادَ إلى المكتب مضيفاً: «المنازل طعمة للنيران والروس يُحاولون الهرب باتّجاه الشرق..» «عندئذٍ قال الله: «ليكن» النور وفوراً أضاء النور العالم.

كان السيد جوليفيه في غايةِ الغضب. أما الصحفي الإنكليزي فقد تنقّلَ مرّتين بين المكتب والنافذة. لكنّه في المرةِ الثالثة بقي أطول مما ينبغي يتأمّلُ ما يجري دون أنْ يلحظ انتهاء الموظف من عملِه وعند ذلك سارعَ السيد جوليفيه إلى الحلولِ محلّه وأعطى برقيته هذا نصُّها:

مادلين جوليفيه ١٠، ضاحية مونمارتر باريس من كوليفان، مقاطعة أومسك، سيبيريا، السادس من آب.

تخلى الروس عن القريةِ للتتار مُحاولينَ الهرب باتّجاه الشرق! التتار يتعقّبونهم عن قرب.

وليحذوَ حذوَ زميله الإنكليزي، أضافَ أغنيةً معروفةً:

هناك رجلٌ قصيرٌ.
يرتدي ملابسَ رمادية.
في باريس.

اقتربتِ الطّلقاتُ الناريّة، وبينما كان السيد جوليفيه يبرق، سقط هاري بلاونت وقد أُصيبَ بطلقٍ ناريٍّ في كتفه. وفي نفسِ الوقت لاحظَ الموظف أن الخط البرقي

قد قُطع. فغادرَ مكتبه بكلِّ اطمئنان وخرجَ من بابٍ صغيرٍ دون أنْ يلحظَه أحد. أما جوليفيه فقد ساعدَ بلاونت على النّهوض وفي هذه اللّحظةِ اقتحمَ الجنودُ التتار المكتبَ فلم يتمكّن ستروجوف ولا الصحفيان من النّجاةِ ووقع الثلاثة في الأسر.

* * *

استقرّ جيش فيوفار خان على بُعدِ عشرات الكيلومترات من كوليفان حيثُ اقتيدَ الأسرى في اليومِ التالي أي في السابعِ من آب، وسُجنوا في بُقعةٍ مُحاطةٍ بسورٍ خشبي، قام على حراستها ليل نهار جنود عديدون منهم الرّاجل ومنهم الرّاكب، وهناك تُركوا تقريباً دون طعام، وماتَ بعضُ الجرحى لانعدامِ العناية فدفنهم رفاقُهم في نفسِ المكان الذي كانوا نائمينَ فيه.

ساءتِ الحالُ بالنسبةِ لحكومةِ القيصر فقد توغّلَ التتار داخلَ سيبيريا، وإذا لم تُبادر الجيوشُ الروسية للدّفاع عن إيركوتسك، فإن هذه العاصمة ستسقطُ عما قريب في أيدي الأعداء وسيؤسر الغراندوق وربما قُتل.

في هذه الأثناء، ما الذي آلتْ إليه حالُ ستروجوف؟ إنّه من أولئكَ الرجال الذين لا يتوقّفون إلا يوم يخرُّون صرعى. فكَّر.

ـ إنّني أسير، لكنّ مُصيبتي فيها بعضُ الإيجابيات، فلن يلحظني أحد وسط كل هؤلاء الناس المحروسين بضربات السوط كالحيوانات.

سيقتادنا التتار أوّل الأمر إلى تومسك، أي إلى حيثُ أُريدُ الذهاب، وسيكونُ ذلك أقلّ خطراً عليَّ ممّا لو سافرتُ لوحدي. وفي تلكَ المدينةِ سوفَ أجدُ فوراً وسيلةً للفرار وبعد بضعِ ساعات أبتعدُ عن الأعداءِ فلا أعودُ ألتقي أحداً منهم في طريقي حتى إيركوتسك.

وكيْ يكونَ الأمرُ مُمكناً، يجبُ على الأخص ألاَّ يُبكّر إيفان أوجاريف بالقدومِ مع جنوده. إن فيوفار خان ينتظرُ في هذه اللّحظة، لكن عندما يلتقي جيشا أومسك وتومسك فسيصدرُ إليهما الأمرُ بالتحرك نحو الشرق، لذا يأملُ ميشال ستروجوف أن يستطيع الرحيل قبلَ ذلك لأنّ وصولَ أوجاريف سيزعُجه لسببٍ آخر، فهو يعرفُ أن ذلكَ

الرجل يبحثُ عنه وسيُحاولُ بكلِّ الطرق أنْ يتعرّف عليه وهكذا انقضتْ أربعة أيام.

لم يكنْ جرحُ هاري بلاونت عميقاً فضمده له جوليفيه واعتنى به قدر المستطاع فأصبحَ الصحفيّان صديقين. لكن لسوء الحظ وفي صباحِ الثاني عشر من آب سُمعتْ جلبةٌ كبيرةٌ تُنبىءُ بوصولِ جيش أومسك.

* * *

وصلَ إيفان أُوجاريف، فكانَ ذلك النّبأُ سيِّىءَ الوقْع على ستروجوف، حسنَهُ على جوليفيه وبلاونت اللّذين كانا يخشيان أنْ يحسبَهُما التتار جاسوسين ويُعدموهما. واعتقدَ أنّ هذا الضابط الروسي السابق سيُحسن التصرف معهما، فحتى أثناء الحرب يجب ترك الحريّة للصحفيّين الأجانب.

نجحا بالفرار من مكان اعتقالهما وقبل أنْ يتمكّن الحرّاس من الإمساك بهما تقدّما من إيفان أوجاريف الذي كان يجهلُ هويّتهما لأنه عندما ضرب ستروجوف بالسوط في المحطةِ القريبةِ من إيشيم، لم يلحظِ الأشخاصَ

الموجودين في القاعةِ. لكنَّ الصحفيّين تعرّفا عليه فدهشا ولم يقولا شيئاً. فحص أوجاريف أوراقَ هويّتهما وأمرَ بإطلاق سراحهما فقرّرا أنْ يظلّا صديقينِ وأنْ يستمرّا سويةً بتتبّعِ الحرب.

بعد ظهرِ اليوم نفسه، تحرّك جيشُ التتار بأكمله نحو تومسك، في رحلةٍ تبلغُ مئة وخمسين كيلومتراً يسهلُ القيامُ بها على جنودٍ لا يعوزهم شيء، لكنّها جدّ شاقّة بالنسبةِ للأسرى الذين ماتَ الكثيرونَ منهم تعباً وجوعاً.

كانتِ العجوزُ مارفا ستروجوف من أشجعِ الأسيرات، اقتيدتْ من أومسك مع عددٍ من البائسين الآخرين، فلم تشكُ أبداً. كانتِ البوهيميّة المُخيفة سنجار تَتبعُها دوماً وتُراقبُ ما تفعله دون أنْ يبدو على مارفا أنّها تشعرُ بتلكَ المُراقبةِ بل كانتْ على العكس تبدو مطمئنّةً كما لو لم تُزعجها.

وسطَ جميع أولئكَ الأسرى الذين ساءتْ طباعُهم، أسعدها الحظُ فلم يُبقها وحيدةً بل ساعدتْها فتاةٌ طيّبةٌ واهتمّتْ بالاعتناء بها. فظنّتْ مارفا في بادىء الأمر أنها

قد تكون جاسوسةً ترمي إلى حملها على الكلام، لكنّها بعد بضعةِ أيّام أدركتْ أنها يجبُ ألّا تخشاها فتحابّا وكان يُخيّل لمنْ يراهما أنهما جدّةُ وحفيدتُها.

كانتِ الفتاةُ هي ناديا التي اختطفها الجنودُ التتار واقتادوها إلى أومسك حيثُ وُضعتْ مع باقي الأسرى. وكانتْ شديدةَ الحزن لتفكيرها الدائم بصديقها القديم الذي رأته يسقطُ في مياه الايرتيش بعد أنْ أُصيبَ بضربةِ سيف.

وذات يوم روتْ قصّةَ رحلتِها للعجوز مارفا التي ما إنْ سمعتْ اسمَ نيقولا كوربانوف حتى أخذ قلبُها يخفقُ في صدرِها إذ تذكّرتْ أنَّ ذلك هو اسمُ الرجل الذي يُشبه ابنها فأصغتْ إلى الفتاةِ وفهمتْ كلَّ الحقيقة.

كان بإمكانها أنْ تُسبِّب سروراً بالغاً لناديا لو أعلمتْها أنْ نيقولا كوربانوف المزيف لم يمتْ لكنها فضّلتْ أن تلوذَ بالصّمتِ مُكتفيةً بالقول: «تسلّحي بالأمل يا ابنتي وافعلي مثلي فستنتهي مصائبُكِ يوماً ما، ولا يمكنُ أن يسمح الله بموت صديقِكِ الشجاع».

* * *

في مساء اليوم الثالث وصلَ الجيشُ إلى مشارفِ تومسك وتوقّف عندها. كان فيوفار خان قد استقرّ في المدينةِ التي سيدخلها الجنود في اليومِ التالي باحتفالٍ عظيم. أمّا الأسرى فكانوا محروسين في مكانٍ يقعُ على ضفةِ أحدِ الأنهار فتمكّنوا أخيراً من إرواءِ ظمإهم والاغتسال وأخذ قسطٍ من الرّاحة.

كانت مارفا وناديا متلازمتيْن، وفي لحظةٍ من اللّحظاتِ، أطلقتِ الفتاةُ صيحة. فقد رأتْ مَنْ تعتقدُ أنه نيقولا كوربانوف. سمعها ستروجوف فالتفتَ ورأى المرأتين لكنه بقيَ مسيطراً على نفسه وتظاهرَ بعدم معرفتهما. همّت ناديا بالجري إليه فأمسكتِ العجوزُ بذراعها وهمستْ في أذنها:

- ابقي يا ابنتي.
- إنّه هو! لم يمتْ!

بادرَ ميشال ستروجوف إلى الابتعاد بعد أن عرفَ بوقوع والدته وناديا في الأسر وتعجب لحكمةِ الخالقِ الذي دفعهما إلى التعرّف على بعضهما. بعد أن أصابتهُما

المصيبةُ عينُها. وبعد ما جرى قرّر الفرارَ في اليومِ التالي.

لكن سنجار كانتْ لسوء الحظ على بُعد خطواتٍ فلم تستطعْ رؤيته لأنه سارعَ إلى الاختلاطِ بإحدى المجموعات لكنّها لاحظت الحركة التي قامت بها العجوزُ لمنعَ ناديا من الجري إلى أحدِ الأسرى ولم يفُتْها بريقُ عينيْ الأولى عندما رأتْ ابنَها فتأكّدتْ أن ميشال ستروجوف أسير. لكنْ ما السبيل للعثور عليه بين مئات الرجال؟ ليس هناك سوى وسيلة واحدة هي حملُ والدتِهِ على الكلام.

أخبرتِ البوهيميّة أُوجاريف بالأمر فَسُرَّ لسماعه هذا النبأ. وفي العاشرةِ من صباحِ اليوم التالي، رافقَ البوهيمية إلى مكان الأسرى وأمرَ الجنود أنْ يصفوهم حوله بشكلٍ دائري. ثم تقدّمت سنجار من مجموعةِ مارفا التي أدركتْ عندئذٍ ما سيحدث فانحنتْ على ناديا وقالتْ لها بصوتٍ هامس: «إنّك لا تعرفينني بعد الآن يا ابنتي، وحتى لو قتلوني، لا تقولي كلمةً واحدة، ولا تأتي بأيّة حركة!».

أمسكتِ سنجار بكتف العجوز واقتادتْها إلى وسط الدائرة. قُبالةَ إيفان أوجاريف الذي قال لها:

ـ إنْ ابنكِ هنا وستدلّينني عليه.

ـ لا!

ـ سيمرّ أمامكِ كلُّ هؤلاءِ الرجال الذين أُسروا في أومسك، أو في كوليفان وإذا لم تدلّيني على ميشال ستروجوف، فستنالين عدداً من ضرباتِ السوط يُساوي عددَ الأسرى.

أُحضرَ هؤلاء واحداً تلو الآخر أمامَ مارفا الشجاعة وعندما أتى دور ميشال ستروجوف، نظرتْ إليه والدتُه نفسَ نظرتها للآخرينَ دون أنْ يبدوَ عليها أنها تعرفه.

انتابَ أوجاريف غضبٌ شديد. أمّا سنجار التي كانتْ بقربه فلم تَقُلْ سوى كلمة واحدة: «السوط!» فصاح: «أجلْ! عليّ بالسوط لهذه العجوز حتى تموت!».

كان السوط الروسي رهيباً بسبب خيوط الحديد في طرفه وكانتْ مئةُ ضربةٍ منه كفيلةً بقتل أيِّ شخص كان. كانت مارفا ستروجوف تعرفُ كلَّ ذلك لكنها كانت تعرفُ

أيضاً أن لا شيء يحملُها على الكلام فهي مستعدّةٌ للموت.

أمسكَ بها جنديان وألقياها أرضاً على ركبتيْها ثم مزّقا ثوبَها حتى الحزام، وغُرسَ سيفٌ أمامَها وقد وُجِّه نصلُه صوبَ صدرها كيْ يجرحها إذا ما انحنتْ تحتَ وطأةِ الضّربات. وإلى جَانبِها وقفَ أحد التتار مُتأهباً لضربها.

قال له أوجاريف: «إبدأْ» فارتفعَ السوط في الهواء، لكنه قبل أنْ يسقطَ على ظهرِ المسكينة أمسكتْ به يدٌ بقُوة. إنّه ميشال ستروجوف الذي لم يتمكّن من السيطرة على نفسِه فانقضّ على التتري ليُنقذَ والدته.

نجحتْ خطةُ أُوجاريف فصاح:

ـ ها هو، إنّه التّاجرُ الذي شاهدتُهُ في المحطة!

أجابَ ستروجوف: «هو بعينه!» ثم هوى بالسوط على وجه عدوّه فمزّقه، فسمعَ صوتَ شخصٍ قريبٍ يقول: «إنّه ردٌّ جيد».

ارتمى عشرون جندياً على ستروجوف وهمّوا بقتله لكنّ أوجاريف الدّامي الوجه أوقفهم قائلاً: «يجبُ أنْ

يُحاكمَ رئيسُنا فيوفارخان هذا الرجل فابحثوا عمّا يحملُه في جيوبه». وهكذا عُثرَ على رسالةِ القيصر وأخذهَا أوجاريف.

كـان الذي أطلقَ صيحـةَ: «ردٌّ جيد». هـو السيد جوليفيه. كان الصحفيّان حاضرين فشاهدا كلَّ شيء وقال هارّي بلاونت:

ـ إنّها لقصّةٌ مُثيرةٌ لصحيفتنا! بـودّي لو عـرفتُ ما تَضمّنَتْهُ هذه الرسالة.

* * *

كان فيوفار خان يُريدُ استقبالَ جيشه المُنتصر وإقامةَ احتفالٍ له في المساءِ، في إحدى ساحاتِ المدينة، يتخلّله الرّقصُ والغناء، لذا قرّر الصحفيّان البقاءَ في تومسك لحضوره.

وفي الساعةِ الرابعة بعد الظهر، وصلَ فيوفار خان على صهوة جواده مُحاطاً بضباطه الكبار فترجّلوا وجلسوا تحت سرادقَ جميلة الألوان أُعدّتْ لهم.

بُدىء بإحضارِ الأسرى وأُجبر كلٌّ منهم على تحيّة

فيوفار خان مُعفّراً جبهتَـه بالتـراب. وعنـدمـا حلّ دور ستروجوف بقي واقفاً دون أنْ يغضَّ بصرَه فأرادَ جنديان حَمْلَهُ على الانحنـاء لكنّ الشاب دفعهمـا إلى الوراء فوقعا.

تقـدَّم منه إيفـان أوجاريف قـائلاً: «سـوف تموت» فأجابه:

ـ سوف أموتُ لكنّ وجَهَك سيبقى محتفظاً إلى الأبد بأثر ضربةِ السوط التي أَصبتهُ بها.

سمعَ أوجاريف هذه الكلماتِ فشحُب وجهُه غضباً. سأله فيوفار خان:

ـ مَنْ هو هذا الأسير؟

ـ إنه جاسوسٌ روسي.

أطلقَ هذه الكذبةَ لأنه يعرفُ أن الجواسيس يُعاقبون دائماً بموتٍ مُخيف. قال فيوفارخان:

ـ أيها الجاسوسُ الروسي، لقد أتيتَ لرؤيةِ ما يحدثُ عندنا فانظر اذن ملءَ عينيْك، أُنظر!

كان أوجاريف يعرفُ عاداتِ التتار فَفَهِم دون شك معنى تلكَ الكلماتِ وابتسمَ بخبث.

وبعد أنْ مرّ جميعُ الأسرى أمامَ سيّدهم، اقتادهم الجند بعيداً ولم يبقَ سوى ميشال ستروجوف ووالدته قرب خيمةفيوفار خان. تهاوتْ مارفا تعباً على الأرض ولم تعد تجرؤ على التطلّع أو الإصغاء.

بدأ الاحتفالُ بعزفِ الموسيقى ثم وصلَ عددٌ كبيرٌ من النسوةِ ركضاً وأخذنَ بالرقص. بعدها سُمعَ رجلٌ يقول:

ـ أُنظُر ملءَ عينيْك، أُنْظُر!

كان المردّدُ لكلمات فيوفار خان تترياً طويل القامةِ قوياً وقفَ خلف ستروجوف وهو يُمسكُ بيده سيفاً عريضاً. وبالقربِ منه موقدٌ تشتعلُ فيه قطعٌ من الفحم.

بعد ذلك رقصتْ نسوةٌ غيرهُن سرعان ما تعرّف عليهن ستروجوف والصحفيّان فقال بلاونت لصديقه:

ـ إنهنَّ بوهيميات نيجني نوفو جورود.

ـ هُنَّ بعينهن. أعتقدُ أن الجاسوسات يربحنَ بأعينهنَّ

نقوداً أكثر من التي يرْبحنْهَا بسيقانهن.

كانت سنجار تتوسطهنَّ وهي أجملهن. تقدّم فتى بوهيميٌّ في الخامسة عشرة فغنّى ورقصتِ النّسوةُ حوله. وعندما انتهـوا رمى لهم فيوفار خان سَيْلاً من القطعِ النقدية.

سادَ الصّمتُ بعض الوقتِ فوضعَ التتري يده على كتفِ ستروجوف وردّد مرة أخرى: «أُنظرْ ملءَ عينيْك، أُنظرْ».

لاحظَ السيّد جوليفيه أن سيفَه لم يعُد في يده وهبطَ الظلام. عادتِ الموسيقى للعزفِ واختلطتْ مجموعةٌ من الجند بالبوهيميّين وهم يحملون السيوفَ والغدّارات الطويلة يطلقون منها طلقاتٍ حمراء، خضراء وزرقاء وهم يرقصون، فتبدو السماء مُضيئة. أخيراً انطفأت النيران وتوقّف الرقص.

أُشعلتِ الأنوارُ حول خيمةِ فيوفار خان وأُحضرَ ميشال ستروجوف إلى وسطِ الساحة فسأل السيد جوليفيه صديقه:

- هل تُريدُ حقاً أن تبقى إلى النهاية؟

- كلا! فأنا أرثي لحال هذا الفتى المسكين. أَيُمكننا أنْ نفعل شيئاً لإنقاذه؟

- لا نستطيع فعلَ أيِّ شيء.

ذهبَ الصحفيّان اللّذان كانا قدِ ابتاعا جياداً وبعد ساعة كانا يعدُوان على طريق إيركوتسك.

قال فيوفار خان: «أيها الجاسوسُ الروسي، لقد أردتَ أنْ ترى، فرأيتَ للمرة الأخيرة. بعد لحظةٍ لن ترى عيناك النور إلى الأبد..».

لن يُقتل ستروجوف إذن، بل ستُعمى عيناه بتمرير سيفٍ مُتوهّجٍ أمامهما. أمسكَ التتريُّ السيفَ الذي التقطَهُ من الموقد فلم يُحاولِ الأسيرُ الدّفاعَ عن نفسه لعلمه بأن ذلك لا يُجدي نفعاً. تقدّمتْ أُمُّهُ بصمت فمنعها الجنود من الاقتراب ووقعتْ على بُعدِ خطواتٍ من ولدها الذي نظرَ إليها بكثيرٍ من الحب.

رفعَ التتريُّ السيفَ المتوهِّجَ ومرَّرهُ أمامَ عينيْ

ستروجوف فصاحتْ مارفا العجوز وهوتْ إلى الأرضِ كالميتة.

غادرَ فيوفار خان المكانَ مع جميع ضباطه، وتقدَّم أُوجاريف ببطءٍ يتبعُهُ بعضُ الجنودِ حاملي المشاعل من ميشال ستروجوف فأخرجَ من جيبه رسالةَ القيصر ووضعها ساخراً أمامَ عيني البائس وهو يقول:

- إقرأ الآن، إقرأْ واذهبْ لِتُعيدَ ما قرأتَهُ على مسامع الغراندوق. فمنذ اليوم أصبحتُ أنا رسول القيصر لتحذير أخيه.

قال هذا وانصرف، فسمعت بعيداً الصرخات والأغاني وجلبة الاحتفال المستمرِّ في المدينة.

بقيَ ستروجوف وحيداً فبحثَ عن مكان سقوطِ والدتِه وانحنى فوقها مُصغياً إلى ضرباتِ قلبها ثم بدا وكأنه يُحدِّثُها بصوتٍ مُنخفض. فهل لا تزالُ مارفا العجوز على قيدِ الحياة؟ وهل سمعتْ ما قاله لها ولدُها؟ على كلٍّ لم تأتِ بأيّة حركة.

قَبّلها ميشال ونهضَ وسارَ بضعَ خطواتٍ ويداه ممدوتان

إلى الأمام. في هذه اللّحظةِ وصلتْ ناديا فقطعتْ رباطَه بسكين وقالت له: «يا أخي!» فأجابها ستروجوف: «ناديا! ناديا!».

- تعالَ يا أخي فَمِنَ الآن وصاعداً ستكونُ عيناي عينيكَ وسأقودُكَ بنفسي إلى إيركوتسك.

* * *

أثناءَ الاحتفال احتسى الجنودُ التتار الخمرةَ ولهوا فلم يلتفتوا لشيء وتمكّن أسرى كثيرون من الهرب.

عادتْ ناديا عندئذٍ إلى الساحةِ حيثُ اختلطتْ بالناس الباقين وشاهدتْ كلَّ شيء. وعندما أُحرقتْ عينا صديقِها لم تُطلق صيحةً واحدة ولم تاتِ بأيّة حركة كي لا يلحظها أحدُ بل انتظرتْ انصرافَ الجميع ثم سارعتْ لمُساعدةِ ستروجوف.

بعد نصفِ ساعة، غادرتْ تومسك بصحبتِهِ ويدها في يده. وفي اليومِ التالي وُفِّقا بلقاء عربةٍ يجرّها حصانٌ ويقودها موظّفُ مكتب برق كوليفان فصعِدا إليها وأكملا طريقهما دون تعب.

كان الموظف الذي يُدعى نيقولا بيجاسوف الذي لا يصحبه سوى كلبه سيركو يتّجه شرقاً حيثُ يأملُ العثورَ على عمل. كان الرّيف بمدنه وقراه شبه مُقفر، فقد خافَ الفلاحون ورحلوا مُخلّفين وراءهم مُؤناً لم يتمكّنوا من حملها، فأخذ منها مسافرانا ما طابَ لهما أنْ يأخذا.

سارتِ الأمورُ على ما يُرام طيلةَ أسابيع ثلاثة. أما جيش فيوفار خان فقد أُجبر دون شك على تمديدِ إقامته في تومسك، وبدأ ستروجوف يعتقدُ أن الطريق إلى إيركوتسك ستكون آمنة. لكن يظهر أنّ مصائبهُ لم تنتهِ بعد، إذ منذ السادس من أيلول بدأ يُلاحظُ مع ناديا بعضَ التّغيير في المنطقة التي يجتازانها: فالمَزارِعُ لم تَعُدْ مُقفرةً فحسب، بل مُهدَّمةً أو مُحترقة. وفي اليومِ التالي شاهدا دخاناً يتصاعدُ من بعيد.

بعد بضعِ ساعات عثرا على جثث فلاحين مقتولين لم يجمدْ دمهم بعد مما يدلُّ على أن التتار قد مرّوا من هناك بالتّأكيد.

وفي مساءِ الثامن من أيلول رأى نيقولا وناديا أمامهما

قريةً تحترقُ فتساءل الجميعُ عمّا سيفعلونه وعمّا إذا لم يكنْ من الأفضلِ أنْ يتركوا الطريق ويدوروا حول القرية، عبر الحقول. وقبلَ أنْ يُتاحَ لهم الوقتُ الكافي للفرار سمعوا طلقاً نارياً أصابَ رأسَ الجواد فقتله. ثم أحاطتْ بهم فوراً دزّينةٌ من الأعداءِ اقتادتهم أسرى. حدث كلُّ ذلك بسرعة فائقة لم تترك لهم مجالاً لمحاولةِ الدّفاعِ عن أنفسهم.

أما الكلبُ الطيّبُ سيركو فقد تَبعَ سيّده.

في الطّريق، عرف ميشال ستروجوف أنّ هؤلاء التتار جزءٌ من جيشٍ ثالث آتٍ من الجنوب، ينحدرُ على الوديان ويزحف على إيركوتسك. أما الجيشانِ الآخران بقيادة أوجاريف وفيوفار خان فلا يزالان بعيدَيْن في المؤخرة. وعندما تلتقي الجيوش الثلاثة فسيسهلُ عليها الاستيلاء على عاصمة الغراندوق.

لاحظَ التتار أنّ أحد أسراهم أعمى فخطرَ لهم أن يلهوا بإركابِه حصاناً أعمى هو الآخر أخذوا يحثّونه على الجري بالحجارةِ والسوط. لم يكنْ بوسع الحيوان المسكين أن

يسيرَ بخطٍّ مستقيم، فكانَ يَحيدُ عن الطريقِ ويصطدمُ بالأشجارِ. وكلّما سقطَ الجواد انتظر ستروجوف بهدوء وصمت أنْ يساعدوه على النّهوض ومن ثم تُستأنفُ اللّعبةُ الشّرّيرة.

كان نيقولا يودُّ منعَ ذلك لكنْ دون جدوى، وفي لحظةٍ ما جرى الحصانُ الأعمى نحو حفرةٍ عميقة فسقطَ فيها وأطلقَ نيقولا ونادِيا صيحةَ خوفٍ مُدويّة. لكنّ ستروجوف كان قد قفزَ قبلَ سقوطِ الجواد فلم يُجرح، وكُسرتْ قائمتا الحصان فتركه التتار يموتُ هناك.

رُبطتْ يدا ستروجوف إلى حبلٍ أمسكَ أحدُ الجنود بطرفه الآخر، فكان على المسكين أنْ يلحقَ به بخطى سريعة.

وفي الغدِ أيْ في الحادي عشر من أيلول توقّفتِ المجموعةُ الصّغيرةُ في إحدى القُرى حيثُ عثرَ التتار على خمرٍ وأفرطوا في شربه. وعندما همّوا باستئناف المسير أساء أحدُهم التصرّف مع ناديا فتقدّم منه نيقولا وانتزع منه غدّارته وقتله بطلقٍ منها أصابه في صدره. أحاطَ به

الجنودُ فوراً فأحكموا وثاقه وألقوا به ككيسٍ على ظهر الحصانِ ثم أصدرَ الضّابطُ الأمرَ بالرحيل.

انتهزَ ستروجوف فُرصة تحوّل الانتباه عنه فقضمَ الحبل الذي يُقيِّدُ يديْه بأسنانه، وعندما انطلقَ الجنديُّ إلى الأمام شدّ الحبل بقوةٍ فانقطعَ دون أنّ ينتبَه التتار المسرعون للأمر. وبقيَ ميشال ستروجوف وناديا وحيديْن في الطريق.

* * *

ها هُما مرّةً أُخرى مجُبران على مُتابعةِ رحلتهمادون مالٍ ودون مُؤنٍ سوى تلكَ التي يعثرانِ عليها في البيوت، ودون مُساعدة أحدٍ. كان أمامهما أكثـرَمن أربعمئـة كيلومتر يقطعانها قبل الوصولِ إلى إيركوتسك.

سارَا بصمت، وعندما كانت ناديا تتعب، كان ميشال يحملُها بين ذراعيْه. انقضتْ عدّةُ أيّام على هذه الحال، وذات مساء سمعا عواءَ كلبٍ فتوقّفا لحظةً يُصغيان ثم قالتْ ناديا وهي تقودُ صديقَها نحو مصدرِ العواء: «تعالَ يا ميشال!»

فأجابها:

ـ أجلْ، إنّه سيركو وقد تبعَ سَيّده.

نادت الفتاة: «نيقولا! نيقولا!».

تركا الطريق وركضا وسطَ الأعشاب العالية وبعد خمس أو ست مئة متر رأيا كلباً دامياً يقفز نحوهما فتطلّعتْ ناديا في كلِّ اتجاه، أمّا ميشال فتقدّمَ حبواً على يديْه ورجليْه يتحسّسُ بيده. أخيراً قالت الفتاة وهي تجثو على ركبتيْها: «هناك.. هناك».

كان رأسُ نيقولا يخرجُ من الأرضِ بشكلٍ مخيف، فلقد دفنَ التتار أسيرهم وهو حيٌّ كي يموتَ جوعاً وعطشاً فأمضى ثلاثة أيّام ينتظرُ قدومَ الموت البطيء.

كانتِ الطّيورُ الجوارحُ قد بدأتْ تحومُ حوله مُتأهّبةً لالتهام وجهه، إلاّ أن كلبَه نجحَ بإبعادها وأُصيب في سبيلِ ذلكَ بجروحٍ كثيرة.. شرعَ ستروجوف يحفر الأرضَ مُسرعاً بسكينه لكن بعد فوات الأوان، إذ لم ينتزع سوى جثّة هامدة. وبحزنٍ عميق حفرَ الاثنان حفرةً عميقة

واريا فيها جسدَ موظّف البرق المسكين الذي كان في غايةِ الطّيبةِ والوداعةِ والهدوء والذي قضى في الدّفاع عنهما.

في هذه الأثناء خارت قُوى سيركو فمات هو أيضاً ودُفن إلى جانبِ سيده. بعدئذٍ قال ستروجوف: «هيا بنا يا ناديا!»

لكنّ طلائعَ جيشِ فيوفار خان بدأتْ تمرّ فكان عليهما أن يسلكا طريقاً آخر، مُنعطفين نحو الجنوب. وهكذا سارا اثنيْ عشر يوماً تساءلا بعدها كيف لم يموتا تعباً وجوعاً!..

أخيراً وفي الثاني من تشرين الأول بلغا ضفاف بحيرة بايكال.

* * *

تبلغُ مساحةُ بحيرة بايكال ٣١٥٠٠ كيلومتراً مربعاً وتخرجُ مياهُها مع نهر أنجارا الذي يجتازُ إيركوتسك ويصبُّ في اليانيزابي. شكلُها شكلُ قرن، وقد وصلَ ميشال وناديا إلى طرفه الجنوبي الغربي.

حالفهما الحظّ هذه المرة فصادفا مجموعةً مُؤلّفةً من

خمسين روسياً يُحاولون الذّهاب إلى إيركوتسك على ظهرِ عبّارة كيْ لا يقعوا في أيدي الأعداء. صعدا معهما فأطعموهما وتمكّنتْ ناديا من النومِ على فراشٍ من الأوراق الجافة.

وفي الساعةِ الثامنة مساءً كان كلُّ شيء مُعداً للرّحيل، فَنُزعتِ الحبالُ التي تربطُ العبّارةَ إلى الضّفة فحملها التيّارُ السّريعُ المتّجه نحو الانجارا. كان بعضُ الرجال يوجّهونها مُستعينين بعصي لكنّ طقسَ تشرين الأول باردٌ في تلك المنطقة، وبدأ مسافرونا يرون قطعاً كبيرةً من الجليد طافيةً على السّطحِ تُشكّلُ خطراً كبيراً ينذر بسدٍّ مدخل النهر ويحملهم على الإسراع.

بلغت العبّارة مدخل النهر بعد ظهر اليوم التالي، كانت هناك قريةٌ مُقفرةٌ كسواها فقرروا التوقّف لإجراء بعض التّصليحات الضروريّة وعندما رستِ العبّارةُ في المرفأ الصغير خرج رجلان من مخبئهما وركضا طالبين اصطحابهما. إنّهما الصحفيان هاري بلاونت والسيد جوليفيه اللّذان كان يودّان الذهاب إلى إيركوتسك من

أقرب طريق لكنّهما خافا أن يقعا في أسرِ الجيشِ التتري الثالث.

رأينا أنهما لم يبقيا حتى نهاية احتفالِ تومسك، لذا دهشا لرُؤ يتهما ستروجوف الذي كانا يَعتقدا أنه قد أُعدم. فبادر يَطلبُ إليهما همساً ألّا يقولا لأحدٍ ما يعرفانه عنه.

بعد بعض الوقتِ انطلقوا في الشقّ الثاني من رحلتهم فتركت العبّارةُ البحيرةَ ودخلتْ مجرى الانجارا الذي كانت تتحدرُ معه كثيرٌ من قطعِ الجليد المُسرعة فيبعدُها الرّجالُ بعصيِّهم الطويلة دَفعاً للحوادث.

هبطَ الليل وكان لحسن الحظ حالك الظلام مما يُؤمّل معه ألّا يرى التتار الذين يحتلّون ضفّتيْ النهر شيئاً. وكانت نجاةُ أولئكَ المساكين مُتوقّعةً على بلوغهم إيركوتسك قبل بزوغِ النهار.

وفي لحظةٍ ما، أدلى جوليفيه بيده في الماء فأدهشتْهُ لَزاجتُهُ ورائحةُ النفط المُنتشر بكثرةٍ في تلك الأصقاع. لكنْ كيف اتُّفقَ وجوده على سطح الماء؟ أخبرَ الصحفيُّ صديقَه بالأمرِ وتساءل كلاهما عما إذا كان ذلك طبيعياً أمْ

إنّها وسيلةٌ لجأ إليها التتار لإضرام النار في إيركوتسك.

في أحد الأمكنةِ ضاق مجرى النهر وتكدست قطعُ الجليد فشكّلت جداراً تبلغُ سماكتُه بضعةَ أمتارٍ أَوقف تقدُّمَ العبّارة.

عندئذٍ قال ميشال لناديا: «دلّيني على الطريق يا ناديا! يجب أنْ نُحاولَ المرور دون أنْ يلحظَ أحدُ رحيلَنا..».

حَبوا على أيديهم ورُكبِهِم، وبعدَ دقائقَ بلغا الجانب الآخر حيثُ تتفكّكُ قطعُ الجليد لاتّساع مجرى النهر، فتمدّدا على إحداها وحملتهما مع التيار. بعد نصفِ ساعة شاهدا أضواء المدينةِ التي لم تَعُدْ تبعدُ عنهما أكثرَ من خمسمئة متر فأطلق ميشال ستروجوف تنهيدةَ ارتياح قائلاً: «أخيراً!» وأطلقتْ ناديا صيحةً فنهضَ ميشال وأضاءتِ النّيرانُ وجهَهُ. عندئذٍ قال:

- آه! هل الله ضِدّنا!

كان التّتار يُحاصرون المدينةَ منذ الرابع والعشرين من أيلول وقد حاولوا مرتين أن يستولوا عليها.

أمّا في المدينةِ نفسها فقد أُتيح للناس بناءُ سُورٍ كبير

وكان الجميعُ من قوزاق وتجّار وفلاحين مُستعدّين للدّفاعِ عن أنفسهم حتى النهاية.

نذكر هنا أن والد ناديا، فاسيلي فيدور، الذي كان يسكنُ ريجا مع زوجته وابنته، والذي قد أرسلَتْهُ إلى سيبيريا شرطةُ القيصر، لم يكن لوحده بل كان هناك العديدون من أمثاله المنفيّين في إيـركوتسـك. هؤلاء الرجال قرّروا تأليفَ مجموعةٍ بإمرةِ فاسيلي فيدور للقتال ضدّ الأعداء في أخطر المواقع فلفتتْ شجاعتُهم انتباهَ الغراندوق الذي وعدهم بإطلاق سراحهم.

كان هناك جيشٌ روسي قادمٌ من الشمال الشرقي يُنتظر وصولُهُ بعد ستة أيّام وكان إيفان أوجاريف يعرفُ ذلك، لذا فسيُحاولُ أن يستخدمَ المهارةَ والحيلةَ حيثُ لم تنفعْهُ القوّة.

في مساء الثاني من تشرين الأول وحوالي السـاعة العاشرة أتى أحدُ الضباط وقال للغراندوق إن مبعوثاً من القيصر قد وصلَ وهو يطلبُ التحدّثَ إليه. فأجـابَ: «ليدخل!».

بدا الرجل تَعِباً، يَرتدي ثِيابَ فلاحٍ باليةً مُمزّقةً وفي وجهه أثرُ جرح.

ـ ما اسمك؟

ـ ميشال ستروجوف.

إنه إيفان أوجاريف الذي لم يره الغراندوق قبلاً ولا يعرفه أحد في إيركوتسك، لذا كان بوسعه أن يخدعَ الجميع بهويّته.

ـ لديك رسالة من أخي.

ـ ها هي.

قرأها الغراندوق بكثيرٍ من الانتباه ثم سأله:

ـ أتعرفُ ما تقوله؟

ـ أجل، لأنه كان من المُمكن أنْ أضطر لتمزيقها كيْ لا تقع في أيدي التتار. وفي هذه الحال كان عليّ أن أستطيعَ ترديدَ ما تحويه.

ـ أنت تعرفُ إذن أن ثلاثةَ جيوش يجب أن تُوقف العدو.

- لسوء الحظ سُحقتْ كلُّها لضعفها أمامَ التتار.

كان أُوجاريف يكذب. كيْ يجعل الغراندوق يفقدُ كلَّ أملٍ في المساعداتِ الخارجية. صحيح أنّ أحد الجيوش قد هُزم في كوليفان وأن جيشاً آخر لقيَ نفس المصير في تومسك لكنّ الجيشَ الثالث الذي ينتظرُه سكان إيركوتسك لا يزال يزحفُ باتّجاه العدو.

- ألاَ يستطيعُ أحدٌ أنْ يأتيَ لمساعدتنا من مناطق الغرب؟

- لا أحدَ يستطيعُ ذلك قبل نهايةِ الشتاء.

صمت الغراندوق لحظةً ثم أضاف:

- إن أخي يُحدّثني أيضاً عن شخصٍ يدعى إيفان أوجاريف سيُحاولُ أن يخدعَني ويفتحَ أبوابَ المدينةِ أمام التتار.

- أجل، فمنذ اليوم الذي أمرتَ فيه بمُعاقبته، قرّر أنْ يُسبّب لك كلَّ أذى ممكن.

- هل صادفتَه؟

- نعم، عندما وقعتُ في الأسر. ولو عرف أنّني ضابط مُرسلٌ من القيصر لَقَتلني.

- وكيف تمكّنتَ من الهرب؟

- بإلقاءِ نفسي في النهر.

- إذا تقدّم مني بهويّةٍ كاذبة، فستدلّنا عليه ليموتَ تحت ضربات السياط. حسناً بإمكانكَ الإقامة هنا ولن أنسى ما قمتَ به من أجل روسيا.

حيّا إيفان أوجاريف وغادرَ القاعة. كانتِ البدايةُ حسنةً بالنسبةِ له، فالغراندوق وضباطه يعتقدون انه ميشال ستروجوف وسيتمكّنُ من إعداد كلِّ شيء لليوم التّالي كما قرّر ذلك.

لقد أعطى للتتار أوامرَ صريحةً تلزمهم بالهدوء حتى الثانية صباحاً، وفي هذه الساعة بالضبط يُهاجمُ ألوف الرجال المدينة من الشمال والجنوب. عندها من المؤكّد أنّ سكّان إيركوتسك سيُبادرون جميعُهم إلى صدّ الهجوم. أما باب بولشايا الذي لاحظه إيفان أوجاريف فلن يبقى للدّفاع عنه سوى بضعة أشخاص. بينما تختبىء

مجموعةٌ من التتار قربه. وفي اللّحظةِ المناسبة يُدخلهم أوجاريف إلى داخل الأسوار.

وفي السّاعةِ الثانية من ليل الثالث إلى الرابع من تشرين الأول كان في غرفته بالطابقِ الأرضي قرب جناح الغراندوق، ونوافذها تطلّ على نهر الانجارا. لقد أعدَّ حبلاً مشبعاً بالبنزين أشعلَ أحدَ طرفيْه وألقاه في مياه النهر. إنه هو صاحبُ فكرةِ مزجِ المياه بالنّفط.

اشتعل النهرُ فوراً وذابَ الجليدُ واحترقتِ البيوتُ الخشبيّة القائمة على ضفّتيه، فتحوّلَ اللّيل إلى نهار. وفي نفسِ الوقت احتدمتِ المعركةُ شمال المدينة وجنوبها. فقال أوجاريف لنفسه: «أخيراً!».

انتظرَ ربع ساعة قبل أنْ يقصدَ بابَ بولشايا. وفي اللّحظةِ التي همَّ فيها بالخروج دخلتْ امرأةٌ مبتلة الشعر والثياب إلى الغرفة وهي تركضُ فسألها وقدِ استبدَّ به العجب:

ـ ما الذي أتيتِ تفعلينَهُ هنا يا سنجار؟

لكنّ المرأةَ لم تكنْ هي البوهيميّة بل ناديا.

عندما شعر ستروجوف بالخطر فوق مياه الانجارا، ضمّ الفتاةَ بين ذراعيْه وقفزَ معها، ثم سبحَ تحت المياه فاستطاعَ الوصولَ إلى أول أرصفة المدينة. عندئذٍ قال لناديا:

ـ لِنُسرع الآن، قُوديني إلى الغراندوق!

بعد أقلّ من عشر دقائق وصلا دون أن ينتبهَ إليهما أحد. وفي قاعةِ الطابق الأرضي الجميلة، كان هناك أُناسٌ كثيرون، فالضّباطُ والجنودُ في غدوٍّ ورواح لتلقّي الأوامر، أو لنقلها. وعند تخطيهما كلّ أولئك الناس المزدحمين الذين كانوا يدفعونهما في كلّ اتّجاه، لم يستطيعا اللّحاق ببعضهما. عندئذٍ أخذت الفتاةُ تركضُ في كلّ مكانٍ وهي تُنادي صديقها وتطلبُ التحدّث إلى الغراندوق. فجأةً فُتحَ بابٌ أمامها وظهرَ أمامها الرّجلُ الذي رأته في المحطةِ قبل عبور الإيشيم، ثم رأته في تومسك قرب فيوفارخان. ذلك الذي سيُسلّم العاصمة للأعداء، فصاحتْ بكلّ قواها: «إيفان أوجاريف!».

تراجعَ الرّجلُ وقد أدهشه سماعَ اسمه الحقيقي فهو لا

يريدُ أن يتعرّف عليه أحد. كرّرتْ ناديا الشجاعة نداءَها فَجُنَّ جنونُ أوجاريف واستلّ سكينه من حزامه ثم هجم عليها يُريدُ قتلها. لكنْ وفي هذه اللّحظةِ بالذات أمسكتْ قـوّةٌ مُخيفةٌ بـذراعه فلوتْـهُ ورمتْهُ أرضـاً. إنـه ميشـال سـتروجوف الـذي سمعَ صـراخ صديقتـهُ فَتَبِعَها حتى الغرفة. قال مُخاطباً ناديا:

ـ أغلقي هذا الباب يا ناديا ولا تُنادي أحداً بل اتركيني لوحدي ضدّ هذا الرجل، اليوم لا أخشاه فليأتِ إذا تجرأ على ذلك لأنني بانتظاره.

ـ حاذِرْ فهو يرى بوضوح:

نهضَ إيفان أوجاريف وهو يفكّر بحسم الموقف فوراً فهاجمَ خصمَه وللمرةِ الثانية أوقفتْهُ يدُ ستروجوف ورمتْهُ أرضاً. شحبَ وجهه غضباً فبقيَ منحنياً دون ضجّة يحاول حبسَ أنفاسه. إنه سيحاولُ ضربَ الأعمى قبل أن يشعرَ هذا الأخير بقدوم الضربة.

نظرَ إلى ستروجوف فتملّكه الخوف، ولم يفهم كيف يستطيعُ رجلٌ فاقد البصر أنْ يُجيدَ الدّفاع عنَ نفسه.

هاجمَ مرة جديدة فتفادى ميشال الضربة بحركةٍ سريعة وصاحَ أوجاريف: «إنه يرى!! إنه يرى!».

وكحيوانٍ يُحاولُ دخولَ حُجرة تراجعَ خُطوةً حتى آخر الغرفة عندها جاء دور ميشال ستروجوف بالتقدّم نحوه قائلاً:

ـ نعم إنّني أرى جُرحَ السوط على وجهك، كما أرى المكانَ الذي سأضربك فيه فدافعْ عن حياتك.

شعرَ إيفان أوجاريف بقرب النهاية لكنه بذل جهداً أخيراً وارتمى على عدوه فـالتقتِ المديتـان وتحطّمتْ سكينُ أوجاريف الذي أُصيبَ بجرحٍ في قلبه فسقطَ ميتاً.

في هذه اللّحظةِ فُتحَ البابُ ودخلَ منه الغراندوق مع بعض الأشخاص فرأى على الأرضِ جُثّة مَنْ يظنُّ أنه رسولُ القيصر. سأل:

ـ مَنْ قتل هذا الرجل؟

أجاب ميشال ستروجوف: «أنا».

عندئذٍ وضعَ أحد الضباط غدّارته على جبهته وبدا جاهزاً لإطلاق النار.

ـ ما اسمك؟

ـ من الأفضل أن تسأل عن اسم الرجل الملقى عند قدميك.

ـ إنّني أعرفُه فهو أحدُ ضبّاط أخي.

ـ كلا! إنه إيفان أوجاريف.

ـ إيفان أوجاريف؟ مَنْ أنتَ إذن؟

ـ ميشال ستروجوف.

لا بد هنا من القول أن بطلنا لم يُصب أبداً بالعمى. ففي ساحةِ تومسك عندما استعد التتري لتمرير السيف المتوهّج أمام عينيه، كان ينظرُ إلى والدته التي مدّتْ له ذراعيْها فسالت دموعه وشكّلتْ ستاراً من البخار حال بين عينيْه وبين وهج السيف ممّا أنقذَ بصره. لكنه أدركَ فوراً أن من الأفضل ألّا يعرفَ أحد بما حدث فالتتار تركوه حراً لاعتقادهم أنه أعمى.

ولم يُخبر سوى أمّه وهو يعانقها قبل رحيله. وعندما سخر منه أوجاريف ووضعَ أمام عينيْه رسالةَ القيصر تمكّن

من قِراءتِها ومعرفةِ ما فيها.

هذا ما شرحه ستروجوف ببضع كلماتٍ للغراندوق:

أنقذتُ إيركوتسك.

دافع فاسيلي فيدور ورفاقه عن بابِ بولشايا فهزموا مجموعةَ الأعداء الذين كان يفترضُ أن يدخلوا من هناك لو تمكّن أوجاريف من فتح الباب لهم. وعلى نهر الانجارا احترق النفط بسرعةٍ ثم انطفأتِ النار.

فقد التتار شجاعتهم عندما علموا بمقتل رئيسهم فتراجعوا قبل طلوع النهار حتى خيامهم. مُخلّفين أكواماً من الموتى أمام أسوار المدينة، وفي عدادهم البوهيمية سنجار التي حاولت اللّقاء بسيدها.

أخيراً وفي السابع من تشرين الأول. ومع أول ضوء للصباح، وصلَ الجيش الروسي القادم من الشمال، فخشي التتار أن يُطوقوا وفضّلوا الفرار. ومع الجنود الروس دخل المدينة صديقا ستروجوف، بلاونت وجوليفيه اللذان تمكّنا من النّجاة بعد أن ارتطمت العوّامة بجدار الجليد، وذلك بالسير على هذا الأخير حتى ضفة النهر.

استقرا في أحد البيوت وشرعا بكتابةِ مُشاهداتهما لإرسالها إلى صحيفتيْهما.

وفي أحد الأيام ذهب ميشال ستروجوف لرؤية ناديا التي كانت تعيشُ مع والدها فسألهما عما إذا كانت ترضى بالزواجِ منه. عندئذٍ ارتمتِ الفتاةُ بين ذراعيْ صديقها ثم احمرتْ خجلاً والتفتتْ نحو أبيها الذي قال لها باسماً:

- لا تخافي، فسعادتي هي في أن أدعوكما انتما الاثنين ولديَّ.

كانَتْ نهايةُ الحرب سيئةً بالنسبة لفيوفار خان، فجيوش القيصر استعادت مدن سيبيريا الواحدة تلو الأخرى وقُتل عددٌ كبيرٌ من التتار أو ماتوا برداً ولم ينجُ منهم سوى القليل.

وعندما أصبحتِ الطريقُ بين إيركوتسك والأورال سالكة رحلَ ستروجوف وزوجتُه إلى روسيا مع فاسيلي فيدور. ورغم عجلتهم فقد توقّفوا عند قبر نيقولا المسكين. ضارعين إلى الله أن يقبلَ في ملكوته ذلك الرجل الطيب الذي لن ينسوه أبداً.

في أومسك كانت العجوزُ مارفا بانتظارهم في بيتها الصغير فضمّتْ ناديا بين ذراعيْها وحقَّ لها ان تتعرّف إلى ابنها. وبعد أن أمضى الزوجان بضعةَ أيام معها، عادا إلى موسكو.

وفي العاصمةِ أصبحَ ميشال ستروجوف شخصيّةً عظيمةَ الأهميّة في الحكومةِ الروسية، وعاشَ مع زوجته وعائلته حياةً سعيدةً بعد الأهوالِ التي مرّ بها.

الأسئلة

١ ـ أظهرِ الاختلاف في طباع الصحفيّين وقُل ما هو قصدُ الكاتب من ذلك؟
٢ ـ ما هي أسبابُ حزن القيصر؟
٣ ـ لِمَ كان قطعُ الخطّ البرقي أمراً خطيراً؟
٤ ـ كيف سيُحاولُ القيصرُ تحذيرَ أخيه؟
٥ ـ كيف بدا ستروجوف للقيصر؟
٦ ـ كيف ظهرتْ شجاعتهُ؟
٧ ـ ما هي الوسائلُ التي لجأ إليها ستروجوف لإخفاءِ شخصيّته؟
٨ ـ لِمَ تعجّب عندما علم أن الفتاة ذاهبة إلى إيركوتسك؟
٩ ـ لِمَ تراجعَ ستروجوف عندما طلب البوهيمي أن يتقدّم؟
١٠ ـ هل فهم حديث البوهيميّة؟
١١ ـ ما سبب استياء تجار نجني نوفو جورود من أوامر القيصر؟
١٢ ـ لِمَ نادى ستروجوف الفتاة: أختي وأجابته: أخي؟
١٣ ـ ما الذي أدهشَ ستروجوف عندما سمعَ البوهيمي؟
١٤ ـ ما معنى هذه العبارة: «صائدا الأخبار»؟
١٥ ـ ما الذي يُظهر شجاعة ناديا؟
١٦ ـ لِمَ اهتم ستروجوف بالعربةِ التي سبقتهم؟
١٧ ـ أصرّ رسولُ القيصر على مُتابعةِ السفر رغم اقتراب العاصفة، فهل كان على حق؟

١٨ ـ هل أراد ستروجوف مُساعدةَ المسافرين لطيبة قلبه فقط؟
١٩ ـ لِمَ قال جوليفيه في معرض حديثهم عن الحادث الذي تعرضا له: «إنه لأمرٌ مضحك؟».
٢٠ ـ ما هي أنباء الحرب التي علم بها المسافرون عندما توقّفوا في المحطة؟
٢١ ـ كيف تفسّر عدم دفاع ستروجوف عن نفسه بعد أن ضرب؟
٢٢ ـ تعجّب الصحفيّان! فما الذي فكّرا به؟
٢٣ ـ ما الذي رمت إليه ناديا بهذه العبارة: «أعطني يدك يا أخي؟».
٢٤ ـ كيف تمكّن ستروجوف من عبور الإيرتيش؟ وهل كان ذلك خطراً؟
٢٥ ـ ما الذي كان ستروجوف يودّ فعلَه للهرب مع ناديا؟
٢٦ ـ كيف استطاع ستروجوف الهرب؟
٢٧ ـ كيف عرف أن الضابط الذي ضربه بالسوط هو إيفان أوجاريف؟
٢٨ ـ بيّن ذكاءَ وشجاعةَ مارفا وحبّها لابنها.
٢٩ ـ ما هي الطرق التي سلكها جيشا التتار؟
٣٠ ـ ما الذي سيحدث لو وصل ستروجوف إلى كوليفان؟
٣١ ـ كيف اكتشفَ التتار مخبأ ستروجوف؟ وكيف نجح بالهرب رغم ذلك؟
٣٢ ـ لِمَ أبرق الصحفي الانكليزي بقصته الخلقية إلى صحيفته؟
٣٣ ـ كيف تمكّن الصحفي الفرنسي من الحلول محلّه؟
٣٥ ـ هل يُظهر ذلك الفرق بين عادات الفرنسيين والانكليز؟
٣٦ ـ ما الذي يُظهر أن سير الحرب في غير صالح القيصر؟
٣٧ ـ لِمَ أراد ستروجوف الرّحيل قبل وصول أوجاريف؟
٣٨ ـ ما الذي يُظهر توثق عُرى الصداقة بين الصحفيّين؟
٣٩ ـ هل كانتْ مارفا ستروجوف مُصيبةً بتظاهرها بالهدوء؟ لماذا؟
٤٠ ـ لِمَ لم تقل العجوز لناديا أن صديقها على قيد الحياة؟
٤١ ـ كيف أدركت البوهيمية أن ستروجوف موجود بين الأسرى؟

٤٢ ـ كيف حاول أوجاريف إرهابَ مارفا؟
٤٣ ـ أظهِرْ إن حبَّ ستروجوف لوالدته أقوى من كلّ شيء؟
٤٤ ـ كيف تُفسرّ عدمَ قتل ستروجوف فوراً؟
٤٥ ـ ما الذي قصده فيوفار خان عندما قال لستروجوف: أنظر ملءَ عينيك؟
٤٦ ـ كيف يظهر خبث أوجاريف؟
٤٧ ـ لم كان التقاء ناديا وميشال بنيقولا بيجاسوف أمراً مهماً؟
٤٨ ـ ما هي الجملُ التي تُظهرُ وصولَ المسافرينَ إلى منطقة يحتلّها العدو؟
٤٩ ـ أليسَ في هذه الصفحات ما يُوحي بأن ستروجوف ليس أعمى؟
٥٠ ـ لم كان الموت بطيء القدوم بالنسبةِ لنيقولا؟
٥١ ـ ما الذي يُظهر وفاء الكلب سيركو؟
٥٢ ـ لِمَ يُعرّض الصحفيان حياتهما للخطر؟
٥٣ ـ لِمَ قال ستروجوف إن الله نفسه يبدو وكأنه ضدّهما؟
٥٤ ـ لماذا سيُطلق سراح فاسيلي فيدور بعد الحرب؟
٥٥ ـ ما هي أوامر أوجاريف للتتار وكيف كان يأمل بالإستيلاء على المدينة؟
٥٦ ـ كيف أعتقد اوجاريف أن ناديا هي سنجار؟
٥٧ ـ لماذا صاحتْ ناديا باسم أوجاريف بأعلى صوتها؟
٤٨ ـ ما الفرق في طريقتي قتال ستروجوف وأوجاريف؟
٥٩ ـ كيف نجا ستروجوف من العمى؟ ولم أخفى الأمر عن الجميع؟
٦٠ ـ كيَف انتهتِ القصة؟

قصص عالمية

ميشال ستراغوف

